

يوسف جوهر

ابتسامات... وحية رقطاء



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السّيد أبو النجا



خذ المعارف من دار المعارف

اقرأ ٣٦٦ – أبريل سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م. ع .

يوسف جوهر

ابتسامات ... وحيّة رقطاء

اقرأ ٣٦٦

دار المعارف بمصر

الإهداء

إلى ابنتي سهير ...
التي طالما تسلقت كتفي
وانتزعت قلمي وأنا أكتب
هذه القصص

[signature]

ابتسامات ... وحيّة رقطاء !!



جادت عليها الحياة بأنعمها . وهبتها جمالا ندر أن يوهب للبشر ، ووهبته قلباً كريماً وحظًّا باسماً .. وكانت آية حظه أنه سبق سواه وبنى بها بيتاً .. تحسده عليه أصفى الطيور المغردة بالا وأرقها مزاجاً ..

كان ما بينهما هو نبوغ الحب، وتفوقه المتجدد على نفسه .. بين عينيها وعينيه صلة ، تشبه الصلة بين النبي وإيمانه .. يكفى أن تتحانق نظراتهما لتتحول الأمور إلى ما يشتهيان بسحر ساحر ، فيجدان فى الظلام الدامس ليلتهما المقمرة ، ويستنبطان من أعماق الصمت والسكون أجمل الألحان .. ويستطيعان ، وكلاهما وادع بين ذراعى الآخر فى مقعد صغير ، أن يذهبا إلى رحلة بعيدة ، حول عالم جميل ، طائرين بأجنحة ملونة ريشها منتخب من غرفة ملابس الملائكة !

ولم يكونا كسولين . فجدّا فى البحث عن بذور أزهار السعادة ، ليزرعاها فى حديقة حياتهما .

مضى عام على شغفهما بأرض الحديقة . . والأزهار المسماة بالأطفال لم تظهر . .أما زهرة النجاح فقد شقت التربة ، ولكنها لم تكن قابلة للنمو ، وبقى « كامل » فى عمله حيث هو لا يتقدم . وأزهار الشهرة ذبلت مع كتاب طبعه وتلقاه النقاد أسوأ لقاء . . والصداقة أطلت من بين الأعشاب أوراقها شاحبة ، وسيقانها طويلة عارية ، لا يكسوها إلا شوك الحسد ..

ونقودها القليلة التى خبأها فى أرض المعروف أكلها دود الاقراض .

زهرة واحدة هى التى نبتت نباتاً حسناً ، وملأت الحديقة وغمرتها .. تلك كانت زهرة الابتسام . .

أينما سارت « سميرة » كان الابتسام ينبت تحت قدميها . . وينضر عيشهما . . وكان كامل ينظر إلى شفتيها ، والابتسام يراقصهما ، فيهون لديه كل هم ويصغر فى عينيه كل شقاء . .

* * *

وسأل كامل قلبه فى سر وخفاء : « هذا الابتسام أما يغيض من محياها أبداً ؟ ! »

وأجابه قلبه متعجباً : « أتحسدها ؟ ! »

فاستدرك قائلا : كلا . . ولكنى لم أر فى عينيها الدموع أبداً .

— إن الملل تسلل إلى نفسك . . بدأت تسأم الهناءة .

— تظلمنى يا قلبى . . أنا مازلت سعيداً ، ومازلت حريصاً على سعادتى .

واقتضب الحديث . . وهرب من قلبه .

وكان يظن أنه تخلص من ذلك الخاطر المنكر ودفنه فى أعماق النسيان . . لكن ما أشد ما تعجب عندما وجد نفسه وجهاً لوجه — من جديد — مع رغبته القديمة فى أن يراها . . تبكى !

أهى الكراهية ؟ ! . . ضحك ساخراً . . فما كان معقولا أن يكره

نفسه .. وكانت إلى جواره فضمها إلى صدره ضماً شديداً كأنما ليستغفر من إثمه . . وسألته متعجبة : « لماذا تضحك ؟ » .. فاضطرب . . ألم تعوده أن تقرأ أفكاره . . ولكى يضللها مضى يرتجل خاطراً كيفما يكن ، وإذا هو يقول لها : « أضحك لأنى أتخيل الذعر على وجهك وأنت فى الطائرة .. سنطير إلى الإسكندرية غداً » .

ورقصت سميرة فرحاً . كان السفر بالطائرة أمنيتها التى يأباها عليها ضناً بها على الأخطار .. وأنفقا بقية المساء فى إعداد برنامج الرحلة : « ثلاثة أيام جميلة أريدها خالصة لى يا كامل .. حذار أن تفكر فى أعمالك .. سيكون عملك الوحيد أن تحبنى ، وتسبح بى حتى ألهث من التعب »

ووصلا إلى العقدة التى لا تحلها الأحلام . . نفقات السفر والإقامة فى الإسكندرية .. ثلاثة أيام كاملة .

وفكرت قليلا ، ثم مضت إلى حجرة النوم . . وعادت بشارلى شابلن .

وكانت على فم شارلى ابتسامة عريضة . إنه حصالة نقود فى شكل تمثال .

وقالت ضاحكة وهى تهز شارلى لتسمع زوجها رنين الفضة : « كنت أخبئه فى دولابى منذ زواجنا . . انظر إلى هذا الثقب فى ظهره . . وضعت فيه كل قطعة فضية وقعت عليها يدى . قلت لنفسى . . ولدنا المقبل قد يسوؤه أن نكون فقراء . »

قال وهو يبقر بطن شارلى : « كما يسوء أباه أن تخبئى فى الدولاب رجلا سمع كل ما دار فى مخدعنا من أحاديث عاماً كاملا » .

وبعد إحصاء النقود تمت موازنة الميزانية . . الذهاب بالطائرة . . فلا مفر من أن تكون العودة بالقطار ، وفى مركبة من مركبات الدرجة الثالثة .

* * *

وفرغ من عمله . وأسرع ليلحق بها فى المطار كما تواعدا . . لكنه وجدها فى انتظاره عند باب مكتبه : « غيرت رأيى . سنسافر الآن فى مركبة الدرجة الثالثة وفى العودة نركب الطائرة ! » .

وكان إتهامه إياها بالجبن والخوف هو مادة ضحكهما طول الطريق إلى الإسكندرية .

* * *

واختارت سميرة غرفة فندق تقع فى الدور الأخير من عمارة شاهقة .

قال لها محتجاً وهما يطلان من الشرفة على الشارع : « إننا مرتفعان ارتفاعاً يورث الدوار . لو تعطل المصعد لأنفقنا أيامنا الثلاثة فى الوصول إلى هذه الغرفة » .

أجابت وهى تشبك ذراعيها حول عنقه بحنان : « أعجبتنى هذه الغرفة لأنها معلقة بين الأرض والسماء . . كأنها طائرة . . انظر إلى السائرين فى الطريق . . إنهم يبدون أقل حجماً . . كلام فى سرك . لن نركب الطائرة فى عودتنا » .

وكان قد بدأ يضحك عندما وضعت أناملها على فمه لتسكته : « إنه ليس الخوف . سأعترف لك بالحقيقة . . وأنا ذاهبة لأحجز التذاكر فى الطائرة قابلت صديقة قديمة حزينة . . إن شاباً سيزور البيت خاطباً . . وهى فى حاجة إلى ثوب جديد جدير بالمناسبة . وقد أقرضتها النقود .

أغاضب أنت ؟ » .

وكررت « أغاضب أنت » وهى تبتسم ابتسامة يرق لها قلب الصخر الصلد ، فوجد نفسه يضغط كيانها الرقيق بين ذراعيه . . واندفعت الكلمات من فمها متقطعة وهو يهصر عودها : « لا مفر من الاعتماد على السندوتش فى أثناء إقامتنا هنا . ولا مفر من العودة أيضاً فى مركبة الدرجة الثالثة » .

وتحركت فى نفسه ، كما تتحرك الحية الرقطاء ، رغبة تهمس : « اغتنم هذه الفرصة لتسمعها كلاماً قاسياً يبكيها ويطرد الابتسام من عينيها »

ولكن الحية الرقطاء فزعت من صوت سميرة التى كانت تقول : « كنت واثقة أنك لن تغضب . . أستطيع أن أصدق أن هذه العمارة الضخمة لن تكون فى مكانها غداً ، لكننى لا أتصور أبداً أننا سنختلف يوماً . إنك ستؤذينى بكلمة خشنة أو نظرة قاسية . . أمن الممكن . أن نتخاصم يوماً ما ، على أمر ؟ ! » .

وحاول أن يسكتها بقبلة ساحقة لكن الكلمات ظلت تنساب من بين شفتيها الموثقتين بلثماته : « فلنفرض أننى عصيتك يوماً . هل تغضب ؟ ! »

قال ضاحكاً : « من يدرى » . .

قاطعته فى عناد : « تكذب . . أنا واثقة أن هفواتى كحسناتى لن تصادف فى نفسك إلا القلب الرحيم الحنون . انظر إلى هذا العمق بين الشرفة وأرض الطريق . وتخيله مضاعفاً مرات لا عدد لها ، ثم تعال أقل



لك إن هوانا أعمق » . . احسب هذه الحسبة ، وتسل بالتفكير فيها ريثما أرتب شعرى عند الحلاق وأعود إليك . وحذار أن أعود ولا تكون قد « اخترعت » بعد سهرة عظيمة فى حدود الميزانية .

* * *

لم يفكر فى السهرة ، لكنه فكر فى ابتساماتها السخية كأشعة الشمس .. وفى عمق حبهما . . نعم ، لن يكون بينهما شقاق أبداً . . ولو أطاع الناس خالقهم مثلما تطيعه هى لرفعت الأرض إلى السماء ! وتذكر فجأة رغبته الآثمة فى أن يرى الدموع فى عينيها .. هذا لن يكون .. إن السرور ينفجر من نبع غزير فى قلبها ، لا يكف أبداً عن التدفق . . هيهات أن يقف فى طريقه حزن أو كدر .

وهمست فى نفسه الحية الرقطاء : « لكن أما تصبو إلى أن تسىء إليها مرة . . جرّب أن تضعها مرة هدفاً لغضبك لترى كيف تبدو عندما تنهمر من عينيها الدموع ؟ . . حاول أن تبكيها ثم تصالحها ! ..»

* * *

وعادت وذلك الخاطر الغريب يداعب خياله .

عادت فرحة بالتسريحة الجديدة ، وبعقد من الياسمين يطوق عنقها الناصع ، وقالت وهى تدور حول نفسها أمام المرآة : « لم يكذب فى قوله إننى أجمل فتاة رأتها عيناه . كنت أظنه ينافق . . »

سألها : « من هو . . الذى ظننته ينافق ؟! »

أجابته وابتساماتها تسطع فى المرآة : .وتأمر كل شىء من حولها

أن يشاركها مرحها : « إنه حمدى .. كان يقص شعره فى صالون الحلاقة الذى دخلته ، فى قسم الرجال .. تصور المصادفة !.. وخرجنا معاً . وسار معى إلى مفترق الطريق الموصل إلى هنا . واشترى لى هذا العقد من الياسمين تحية متواضعة ، على حد تعبيره ، لأجمل فتاة . . رأتها عيناه ! »

امتقع لون كامل ، وأحس كأن الحية الرقطاء تعضّ قلبه . كان حمدى من أقارب سميرة ، وقد حدثت زوجها من قبل أنه حام حولها ، وفكر فيها ، ثم قطع عليه كامل الطريق إلى أمانيه . . هذا هو كل ما يعرفه عنه ، ويومها ترك سميرة تقرأ على وجهه أنه لا يحب أن يسمع عن هذا الرجل أو يراه

ربما لو قالت له فى لحظة أخرى ، غير هذه اللحظة ، إنها رأت حمدى ، لما أعار الأمر التفاتاً .. ولكن الآن بالذات كان ذلك السم الغامض يعربد فى قلبه . لم تكن الغيرة ولا الشك ، فقد كانت ثقته بها عمياء ، ولكنه كان ذلك الشر الذى يستهويه ويغريه بالظلم والأذى.. إذا ذهبت هذه الفرصة التى يستطيع أن يبكيها فيها فقد لا تعود أبداً . . فليغتنمها . . وليمارس القسوة . . وسيعرف بعد قليل كيف يلاطفها ويرقأ دمعها ! . .

وأيقظه صوتها الضاحك : « أكان يجب ألاّ أقبل منه عقد الياسمين ؟»

ودوى فى الغرفة صوت . . صوت لم تسمعه سميرة من قبل ، ولا توقعت أن تسمعه . . صوت لطمة خلت من الرحمة . . على خدها !

ورآها وهى تشحب ، وتمتقع ، وتذهل .

ولكن الدمع الذى اشتهى أن يراه غزيراً فى عينيها لم ينبثق، كانت هناك ابتسامة تحاول أن تتشبث بالبقاء وهى تقول له : « حمدى لم يقابلنى . ولم يشتر لى عقد الياسمين .. كنت أداعبك .. اشتريت أنا الياسمين .. لأنك تحبه » .

ونطق فى عينيها فجأة صمت مخيف . . صمت قال له الكلمات التى أحبت دائماً أن تداعبه بها : « هفواتى كحسناتى لن تصادف منك إلا القلب الرحيم الحنون » .

وتحولت إلى الشرفة . .

وأسرع فى أثرها ليقول لها مستغفراً : « سامحينى .. ساعدينى على قتل الحية الرقطاء التى تختبئ داخل نفسى . »

ولكنه لم يجدها فى الشرفة .

وأطل من علٍ ليراها على أسفلت الطريق، ومن حولها المارة يتجمعون...

الساقية تدور !!



كنت أصبو أن أكون محامياً ، وكان يصبو أن يكون طبيباً . وكنا في ذلك الحين ما نزال تلميذين فى القسم الداخلى بالمدرسة الثانوية ، وكنا نتحدث عن هذه الآمال ونحن جلوس عند ساقية تروى حقلا قريباً من المدرسة، نداعب بأيدينا الماء الذى تسكبه القواديس فى الحوض، ونداعب بخيالنا أمانينا ، ونمد أعناقنا إلى المستقبل . فأنا أرجو أن أكون محامياً بارعاً « أفلت » من المشانق ، وصاحبى « زكريا » يؤكد أنه لن يكون طبيباً فحسب ، بل صاحب مستشفى يتوافد عليه المرضى من كل صوب .. وكنا نتمادى فى المنى ، فنحلم أن لنا زوجات صغيرات جميلات نغدق عليهن الحب ، ويغدقن علينا السعادة ، وأن لنا بيوتاً حافلة بالأنس يزينها أطفال لهم حلاوة الملائكة وبراءتهم . .

وكانت الساقية تدور ونحن نتحدث ، وترسها يئن حيناً ، ويغنى حيناً ، ويسكت حيناً ، وكأنه يغافلنا ويسترق السمع . . وعم « منيسى» صاحب الحقل جالس هو الآخر يصغى إلى الغلامين اللذين يتحدثان عن المحاماة والطب والحب بصوت يحاولان أن يكون مسموعاً له، ثم يسأم الإصغاء فيقوم ليحث زوج البقر المربوط إلى الساقية ، ويحكم ربط العصابة على أعينه وهو يغنى مواله المحبوب الذى مازلت أذكر منه : « نجمتين فى السما يشهدوا إننى مظلوم .. واحدة فى برج اليمن وواحدة فى برج الروم ، جمل الهوى عضنى ، وجات عضته شوم ، هاتوا

القلم والدواية واكتبوا على نابه ، وان رحت قتيل الغرام يلزموا أصحابه ! »

وكنا نسمع صوت جرس العشاء يدوّى في فناء المدرسة ينادى الجائعين، فنلقى السلام على عم منيسى الذى عضه جمل الهوى ، وننقده ثمن ما أكلناه من بطيخ أو قثاء ، ونجرى . .

كان هذا من عشر سنوات . .

* * *

ما أسرع ما تنقضى السنون ! وما أعجب ذاكرة الإنسان ! إن تاريخ تلك الأيام محفور فى ذهنى كأنه حدث بالأمس . لن أنسى هذا اليوم الذى حزمنا فيه الحقائب بعد أن أدينا امتحان « البكالوريا » . آن أن نفترق إلى حين ، وأعود إلى قريتى قرب « نجع حمادى » وينصرف صاحبى زكريا إلى « السنبلاوين » ، نفترق لنجتمع فى أكتوبر ، فى القاهرة ، لا فى هذه المدينة التى شاءت الظروف أن نتلقى فيها دراستنا الثانوية معاً ونتعارف فيها . ولم نكن قد رأينا القاهرة ، وإنما كنا نسمع عنها . لن أنسى الحديث الذى ملأنا به الساعة التى تسبق قيام القطار الذى سيقلنى ونحن نتمشى على إفريز المحطة . لقد تحدثنا عن « الطب » و « المحاماة » وعن ميعاد الكشف الطبى فى الجامعة ، وعن المكان الذى سنقيم فيه معاً فى القاهرة . . .

وظهرت النتيجة ، وكنت أنتظر برقية من قريب لى فى القاهرة ، لكن البرقية لم تصل . وكان فى قريتنا طالبان متقدمان للبكالوريا ،

وسمعت في منزلهما الزغاريد ، فأيقنت أنه « السقوط » وكان بقطر أفندى الصراف مشتركاً في « جرنال مصر » ، فذهبت إليه في الصباح بعد ليلة لم يغمض لى فيها جفن ، وبحثت عن « نمرتى » في قائمة الناجحين عبثاً ، وانكفأت إلى منزلى . فإذا بصديقى الناجح الهمام الوفى زكريا في « المندرة » ما كاد يعلم النبأ المفجع حتى أتى من السنبلاوين يؤدى « واجب العزاء » ويخبرنى أنه « الإنجليزى » اللعين ؛ وكانت في عينى صديقى دموع وهو يوصينى « بالجدعنة » في الملحق لأن درجاتى في الإنجليزى ٩ والنجاح من ١٦ .

غير أنى لم « أتجدعن » قط .. .وظهرت نتيجة الملحق ، فإذا بالتسعة تنكمش إلى ٧ ، وهكذا كنت أول من أخل بالاتفاق . وذهب زكريا وحيداً محزوناً إلى القاهرة ليلتحق بكلية الطب ، وأبت أنا إلى القسم الداخلى بالمدرسة الثانوية . من هذا الوقت كرهنا الإنجليز أنا وصاحبى كرهاً شديداً ، وصرنا من غلاة الوطنيين الثائرين على القوم ولغتهم ؛ وكان هذا الكره يتزايد ، وكنت أحس بالحسرة كلما تسلمت رسالة من صديقى وقد وقعها « الدكتور زكريا » . وكان الذى يزيد حسرتى أنه يبدأ خطاباته بكلمة «عزيزى الأستاذ» تطييباً لخاطرى ، وكانت حسرتى تذكى حماستى ، فاجتزت امتحان البكالوريا في يسر وسهولة في العام التالى .

لكن الدكتور زكريا هو الذى أخل بالاتفاق هذه المرة . فقد « بلّط » في إعدادى الطب . ولما مضيت إلى القاهرة لألتحق بالحقوق وجدته يعد

حقائبه ليغادر مصر إلى « ليون » ، فقد ضنت عليه الكلية بمقعد إلا إن أراد أن يكون طبيب أسنان ، ولما كانت « السماعة » رفيقة أحلامه ، فقد رفض « الأسنان » بإباء وشمم .

وهكذا قدر لنا أن نلتقى لنفترق . وودعنى بعد أن وضعنى فى « البنسيون » الذى كان يقيم فيه ، وبعد أن رتب حوائجى فى الغرفة التى كانت له عند « مدام ريشار » وشدد على ألا أغادر بيت هذه المرأة الطيبة .

وعدت من الإسكندرية بعد أن ركب صديقى الباخرة ، وفى حجرتى الجديدة أسندت رأسى إلى مكتب رصت عليه مجلدات قانونية ضخمة سبقت المناهج وابتعتها من سور الأزبكية . .وخلت هذه المجلدات هى القواعد العتيدة التى ستقوم عليها أعمدة المستقبل الشامخ ؛ وخنقتنى العبرات. كنت أود أن يشاركنى زكريا السعى إلى المجد والعلا ، وفكرت فى عمق الحب الذى أحبه لى وأحببته له ، وأحسست أننى وحيد ، فشهقت باكياً . وقد شق على فراق زكريا .

ووضعت على كتفى يد رفيقة ، فرفعت وجهى فإذا بمدام ريشار ، وقد انتشرت على وجهها العجوز ابتسامة وديعة . . وإذا بابنتها مادلين قد وقفت على الباب وعلى وجهها سمات الحزن .

ما أطيب هذه الأم والابنة ! وما أقدرهما على مسح الدموع وإزالة الهم والشجن ! لقد غنت العجوز دوراً تغنيه الأم لولدها ، بعد أن شربت

كأساً من النبيذ ، وأدارت مادلين الحاكى ، وكانت الأسطوانة فرنسية ، فلما رأت أنى لا أتذوقها ذهبت إلى الشقة المقابلة واستعارت من صاحبة لها أسطوانة عربية .

وعلى المائدة عرفت أن الأم أرملة مات زوجها فى حرب ١٩١٤ ، وترك لها جاك ومادلين طفلين ، فمازالت بهما تربيهما من إيرادها حتى شب جاك ، وتعلم الميكانيكا ، وصار صاحب ورشة سيارات ناجحة ؛ لكنه قتل فى ليلة عيد الميلاد منذ عامين ، فى حادث تصادمت فيه سيارته بقطار عند « مزلقان » ، فلم يعد هناك بد من أن تخرج مادلين لتعلم الأطفال فى إحدى المدارس ، وتعطى دروساً فى « البيانو » ، ولم يعد هناك بد من أن تؤجر غرفة مفروشة من مثواها . .

وهكذا أخذت الأم والفتاة تحكيان لى عن حياتهما وآلامهما لتسلياني ، وعلى مائدتهما البسيطة ذقت نعيماً جديداً ، وعرفت أن حياتى معتمة تنقصها الأشعة التى تشرق من عيون السيدات .

فى هذا البيت الصغير وجدت متعة بريئة هادئة لم أحصل عليها فى بيتى عند أمى وأبى ، حيث اعتدت أن أرى أمى منهمكة فى العجن والغسل من الصباح إلى المساء ، وأبى منصرفاً إلى الحديث مع المزارعين فى المندرة ، أو مع العمدة فى الدوار ، أو مع الملاحظ فى النقطة . كانت مادلين تعزف وتغنى أحياناً ، وكنا أحياناً نلعب الورق ونديرالحاكى ، وكان يروقنى تندرها وحديثها بلغة عربية متكسرة .

كنت حتى ذلك الحين لا أعرف المرأة إلا عن طريق الكتب ، وكنت قد

كونت لنفسي عقيدة أنه لا توجد امرأة خليقة بالعبادة والعذاب ، فإذا بمادلين تغير عقيدتى وتقنعنى أن المرأة تستطيع أن تكون أكثر من أنثى ، أن تكون العالم بأسره لرجلها . كانت ذات جمال رائع ونفس ذكية . كانت تفهم أدق ما يجول فى خاطرى من تعبير وجهى ، فتكفينى مشقة إخضاع الكلمات العربية لمحصولها من لغتنا ، وكانت هادئة الطبع رصينة ، لا تضع مساحيق ، ولا تبالغ فى التأنق ، ولا تهمل الصلاة فى خدرها أمام أيقونة العذراء وصورة أخيها الراحل .

كم كانت مادلين ظريفة عندما كانت تبسم ابتسامة الصباح وهى خارجة إلى عملها ! وقد تتلطف فتمد أناملها إلى رباط رقبتى فتهذّبه وهى تلومنى فى رفق على إهمال زيى . فى تلك اللحظة كنت أستنشق عن قرب عطر شعرها ، وكنت أحس كأن ابتساماتها تنساب فى نفسى كما ينساب البرق فى الأفق ، وكان يهب منها نفس خفيف يثملنى ، ويفعل بى ما تفعله الخمر بشاربها .

وكنت ليلة الخميس أسهر كثيراً وأستيقظ متأخراً فى صباح الجمعة ، وذات صباح كنت ممدداً فى فراشى مستيقظاً لكن مغلق العينين ، وكنت أفكر فى مادلين . . وأحسست وقع أقدام فى الحجرة ، فرفعت جفنى قليلا لأراها ! . . وكانت تتقدم على أطراف قدميها ، وإذا بها تقف قرب سريرى ، وتحدق إلى وجهى ، وعلى محياها التعبير الذى ينشده الفتى فى الفتاة . وفتحت عينى فجأة فإذا بها تجفل وتمضى لا تلوى . إذن فبنفس مادلين ما بنفسى . فلأجرئ على شفتيها وأذق

منهما طعم القبلة التى طالما قرأت عنها وحلمت بها . إن مادلين تعود فى الساعة الثالثة . فيجب أن أرتدى ملابسى وأكون على استعداد فى هذا الوقت . حتى إذا دق الجرس هرعت إلى الباب وقد عقدت « الكرافتة » فى الجانب الأيسر من عنقى . وهى لاشك سترتاع وتندفع لتصلحها ، وسترفع وجهها نحوى ، فأهوى بفمى على فمها ، وأختطف منه ابتسامته الهائمة ، وأطفئ ظمئى . وليكن ما يكون ! ..

ودق الجرس ، واندفعت إلى الباب ، وفتحته . .

لكن مادلين لم تكن وحدها . . .

كانت معها فتاة مصرية ، وابتسمت المصرية وهى تنقل نظرها بين رباط رقبتى ووجه صاحبتها ، وقهقهت الفرنسية عالياً ، وتصبب جبينى عرقاً .

— هذه « فكرية » التى حدثتك عنها ، عادت اليوم من السفر . .

وكانت مادلين قد حدثتنى فى الواقع من قبل عن صديقتها العزيزة « فكرية » التى تسكن الشقة المقابلة ، وعن والدها سعيد بك المفتش بوزارة الزراعة ، وعن الإخوة الصغار الذين تتولى فكرية العناية بهم بمساعدة مربية مذ ماتت أمها . .

وكانت مادلين قد أطرت جمال صاحبتها كثيراً ، فلما رأيتها عرفت أنها لم تكن مبالغة ، وكانت فكرية بين الحين والحين ترفع عينيها نحوى . وفى تلك اللحظات استطعت أن أقابل نظراتها ، وأحسست كأنى أترنح وأفقد توازنى . . إن فى عينى هذه الفتاة الجنة والجحيم ! ..

وضمتنى حجرتى فى الليل ، وخاصمنى النوم .. .وقال لى الأرق إن اللحظة التى فتحت فيها باب الشقة كانت من أخطر لحظات حياتى ، وإن القدر الذى دفع بفكرية أمامى فجأة قد قضى بلفت قلبى الذى كان يجرى نحو مادلين لفتة شديدة غامضة النتائج ، وخلت أن الماضى بحسناته وسيئاته قد انمحى ، وأننى لا أعرف شيئاً فى الوجود غير عينى فكرية !..

* * *

ومضت الأيام ، وكانت فكرية تزور صاحبتها كثيراً ، وكنت ألقاها وأتحدث إليها . وعرفت مادلين بفطنتها ذات نفسى ، وخيل إلى أنها صدمت وحزنت لما عرفت، لكنها اعتصمت بكبريائها وتماسكت ، وأدهشنى أنها تمهد لى السبيل إلى قلب فكرية ! . .

ولم تقم فكرية فى الطريق إلى قلبها عقبات كثيرة .

ذات مساء ذهبت إلى السينما فى صحبة مادلين وأمها وفكرية . وجاءت جلسة فكرية إلى جوارى ، وكان موضوع الرواية يبعث على الحزن ، فلما بلغ قمة التأثير فوجئت بفكرية تسند رأسها إلى كتفى وتجعل شعرها الحريرى يلامس خدى ، وتناولت كفها وأبقيتها فى كفى فلم تسحبها .

وأضىء النور ، فرأيت عينيها مخضلتين بالدمع ، وقرأت فيهما أننا.. قد تفاهمنا .

ودقت الثانية بعد منتصف الليل وأنا أتقلب فى فراشى . . وخرج

العاشق إلى الشرفة ، فإذا بفكرية واقفة فى نافذتها . وارتدّت، وكل منا يحاول ألا يراه صاحبه .

كان الصباح صباح أحد ، وخرجت مادلين وأمها إلى الكنيسة ، ولم أجد فى نفسى الرغبة فى الذهاب إلى الكلية وبقيت فى حجرتى .

ودق الباب . . وإذا فكرية فى ثوب بسيط من ثياب المنزل . وسألت فى تردد عن صاحبتها . وكنت واثقاً أنها تعرف أن مادلين فى الكنيسة . . ثم استأذنتنى فى أن تدخل لتختار بعض أسطوانات مادلين . وكان واضحاً أنها تختلق سبباً لتبقى معى . وحاولت أن أنتهز الفرصة وأن أقول شيئاً ، لكن شجاعتى خانتنى . واضطرت أن تحمل ما اختارت وأن تمضى إلى الباب ، وعنده مدت يدها مودعة ، غير أنى لم أترك يدها ، وسألتها من حلق جاف : « ليه كنت سهرانة امبارح ؟ » فابتسمت وأجابت : « وليه كنت سهران »؟ ! وكانت ترف على شفتيها ابتسامة . . وقبّلت الابتسامة!

قبلتى الأولى على فم امرأة ، القبلة التى حلمت بها من شفتى مادلين . .

لكن لماذا ارتجفت وارتعدت ؟ ما هذه القشعريرة التى سرت فى بدنى ؟ وكيف تشعل القبلة الحمى فى جسد فتى صحيح ، فيضطر أن يلجأ إلى فراشه ويتدثر بغطائه وقد تصبب جبينه عرقاً ؟ !

* * *

وصارت قبلاتها الخبز الذى أحيا به .

وعلى هذا الخبز عشت ثلاث سنين . كان لحجرتى باب على السلم ، وكانت فكرية تزورنى فى جنح الظلام . تطعمنى من خبزها وحنانها

بكرم وسخاء، وكنا نتحدث عن المستقبل والسعادة القادمة وجنة الزواج .. بقيت سنة وأحصل على الليسانس وأصير .. رجلها .

لم نترك شيئاً إلا تحدثنا عنه ، الأثاث ، نظام البيت ، طراز الغرف ، الألوان ، هل أسمح لها أن تضع أصباغاً .. طالما ألحت على أن أحكى لها عن أمى وأصفها لها . طالما تمنت أن يحضر أبى من الصعيد لزيارتى لتراه ولو من بعيد . .

* * *

ليت السماء لم تجب هذه الأمنية . . كنت ذات مساء عائداً من السينما فى صحبة الفتاتين ، وكنا قد سمحنا لأنفسنا بشىء من الجعة ، وكان الطريق أمام المنزل خالياً ، فأخذنا نعدو ومادلين فى يمينى وفكرية فى يسارى ، فلما اقتربنا من الباب رفعت وجهى إلى الشرفة وإذا أبى واقف ينظر فى دهشة ، ولم يكن قد أنذرنى أنه قادم . .

ولم تخف عليه رائحة الجعة ، وسألنى فى برود عن الفتاتين ، ولم يزد على أن قال : « يا خيبة أملى ! لم أكن أعلم أنك خسرت فى مصر » .

* * *

أمضى ليلته على السرير إلى جوارى ، لكنه لم يحدثنى بكلمة واحدة .. وفى الصباح رفض أن يمس طعام الإفطار ، وقال لى وهو يضع عباءته على كتفه : « بقيت ثلاثة أيام على إجازة عيد الفطر . تعال إلى البلد بلا إبطاء ، فقد عزمت أن أعقد لك على ابنة عمك « صدّيقة » .. »

ولم أتردد فى أن أجيب : « لا أستطيع أن أتزوج صدّيقة » ..

وهنا ثار . وكان « لاروس» على مقربة منه فتناوله وقذفنى به ، وهو يصيح : « طبعاً .. حضرتك داير مع بنات الإفرنج والشوام . . أنا منتظرك فى إجازة عيد الفطر ، فإن لم تحضر فإياك أن ترينى وجهك مرة ثانية ، ولن يصلك منى مليم واحد » .. وخرج . .

* * *

لم أكن قد فكرت من قبل فى « صديقة » تفكيراً جديًّا ، لا لأنها كانت قبيحة ، بل لأنها كانت فى الخامسة عشرة ، وكانت صغيرة القد ، ولم أكن أتمنى أن أتزوج لعبة . وكان عمى أغنى منا كثيراً ، وكان أبى يعتمد على الأطيان التى يستأجرها منه . وكنت أشم رائحة الكبرياء فى معاملتها لى.. فلابد أنها سمعت من ذويها أننا أقل منهم جاهاً.. ولم يكن أبى فى الحقيقة يرمى أن يزوجنى صديقة، بل أن يزوجنى الأرض. فقد كان لها أخ وحيد مصدور يقضى أيامه فى مصحة حلوان . وكلما زرته لمّح لى فى حسرة أنه ذاهب وأنى سآخذ الأرض مع أخته . هذا ما نفرنى من هذا الزواج ، وجعلنى أجيب أبى من غير تردد أنى لا أستطيع أن أتزوج صديقة .

وزنت كل شىء فى نفسى ، ثم صممت ألا أسافر إلى البلدة مهما يحدث ، وبقيت فى القاهرة معذباً تنهال على نفسى مطارق ذات أسماء متعددة : غضب أبى ، حب فكرية ، لن يرسل مليما واحداً ، التخلى عن الفتاة التى وعدتها بالزواج ولوثتها بقبلاتى .

وكنت أعرف أن أبى رجل عنيد ، وأنه تعود أن يطاع ، فكززت

يدى على الجنيهات القليلة التى لدى ، وبعت ساعتى الذهبية ، ووطنت نفسى على اتخاذ « ساندوتش الفول » طعاماً أساسياً . وكان القسط الأخير لحسن الحظ قد دفع ، فأيقنت أنى أستطيع أن أقاوم بقية العام . وكان قد بقى على الامتحان ثلاثة أشهر .

* * *

وانقطعت رسائل أبى ، وأخذت أعيش عيشاً مريراً ، حتى ظهرت النتيجة ، فإذا بى منقول إلى السنة النهائية ، ومن أوائل الناجحين .

وكنت أحسب أن أبى سيرق لى حينما يعرف تفوقى ، لكن كل أملى فى صفحه قد تلاشى ، فقد تسلمت رسالة من أمى بخط مأذون القرية ، تنبئنى فيها أن عمى عرض على أبى يد ابنته لى ، لأن خاطباً غريباً فى الطريق ، وأن أبى عز عليه أن يعرف عمى أنه لا يستطيع أن « يحكمنى » فسكت . وعد عمى السكوت رفضاً فغضب ، وزوج ابنته لحكيم مستشفى الإنكلستوما ، وأنه انتهز فرصة خيبة محصول القطن ، بسبب الدودة ، وتذكر فجأة كل ما فى ذمة أبى من مبالغ متأخرة . . ورفع الدعوى . . وأخذ حكماً . . وبدأ ينتزع الملكية .

ويستنزل المأذون — سامحه الله — على رأسى بلسان أمى غضب الأرض والسماء ، ويذكرنى بسقر وعذاب السعير . . ولعنات أخرى لا أظن أنها مرت بخيالها ولكنه نسبها إليها !

* * *

وانقضت عطلة الصيف بدون أن يصلنى من أبى أى عون ، وأيقنت أنه نبذنى ، وأنه لن يرسل أقساط المدرسة ، وفكرت فى الموت . .

غير أن الأمل عاودنى عندما أعفتنى الجامعة من المصروفات . ولم تكن فكرية تخفى شيئاً من حالى عن مادلين ، فإذا بمادلين تجاهد حتى تجد لى سيدتين أعطيهما دروساً فى اللغة العربية لقاء أجر زهيد لا يكاد يكفى لطعامى .

لقد افتديت بكل ما أستطيع مقامى إلى جوار فتاتى ، لكننى كنت أنحدر إلى البؤس انحداراً سريعاً . ولم يكن من المروءة أن أبقى فى الغرفة التى تؤجرها مدام ريشار لتعينها على العيش ، فأجمعت أمرى وأخبرت مادلين ذات مساء أنى راحل فى الصباح ! . .

ما أنبل هذه الفتاة ! وما أرحم قلبها ! لم أكد أتهيأ للنوم تلك الليلة حتى سمعت نقراً على الباب ، ودخلت مادلين وفى يدها النقود التى تركتها على المائدة ، وفى عينيها دموع . . وبكت وهى تتوسل إلىّ ألا أذهب . . كم حاولت أن تقنعنى بالبقاء . إن لها نقوداً فى البريد تستطيع أن تقرضنيها لكى أواجه نفقاتى ، وأدفع أجر الغرفة لأمها ، ولن يعرف أحد . . حتى فكرية !

لكنى اعتذرت . وقنعت بغرفة رطبة فى حى فقير ، وكنت سعيداً فى هذه الغرفة الضيقة التى وسعت آمال الحب وأطماع المستقبل . كانت فكرية توافينى وتأسو بيديها الرحيمتين جراح كرامتى . وانصرفت بكل قواى إلى الدرس لأنجح وأمسح عن وجهها بسمته المحزونة . وصار حبها سلاحى فى كفاحى .

كنت أحياناً أمل العمل وأفتر ، ثم كانت تأتى فجأة وتسكب نور

عينيها فى عينى ، فأشعر أن صدرى يضىء ، وأن قلبى طائر يصدح ويغنى وتمتلىء نفسى بحب الحياة . فى تلك اللحظات كنت أحس أن سعادتى ترهقنى ، وأنى عاجز عن شكر السماء ، فتنحدر من عينى دموع من فرط الحنان والشكران ، وتنطلق نفسى إلى العلا تنشد نجمها بين ألمع النجوم . .

* * *

وفجأة تحطمت القيثارة . .

كانت فكرية تزورنى كل أسبوع ، لكن ها هو ذا شهر يمضى ، لم تظهر ولم ترسل حرفاً . وذهبت أسأل مادلين ، فعلمت منها أن فكرية « عزّلت » ولم تترك عنوانها الجديد ، وانصرفت محزوناً لا أكاد أصدق مادلين .

وانقضت شهور وأنا أنتظر فكرية عبثاً ، وأيقنت . . أنها القطيعة .

وذات مساء .

كنت واقفاً فى شارع عماد الدين عند سينما النصر وإذا هى قادمة تتهادى وذراعها معلقة فى ذراع شاب أنيق ، جميلة فاتنة كعهدى بها ، ووجهها ينطق أنها شديدة الإقبال على الحياة ، فقد أذاعت فيه المساحيق بجرأة لم أعهدها فيها من قبل !

وتبعتها وهى تدخل السينما .. وأطفئت الأنوار ، واستطعت أن أجلس خلفها ، فإذا ضحكاتها الناعمة تنطلق من صدر مطمئن مفعم بالسعادة ، وإذا بها تميل على صاحبها وتهمس فى أذنه ، ويهمس فى أذنها ، ويدها تغطى يده ، ورأسها يميل إلى كتفه ، وشعرها الحريرى يلمس خده ...

فكرت أن أفاجئها لكنى وجدت شفتى تختلجان ولا تضبطان كلاماً .. وأجزاء وجهى ترتجف فتماسكت ، وانسللت إلى الخارج .

* * *

كنت أحسب أن « صنم » فكرية سيتحطم فى نفسى بعد هذه الضربة وإنى سأدير ظهرى للماضى ، فإذا بى أكتشف أن آلامى لم تبرح صدرى وإذا حبى جديد لم تبله الأيام ولم يطفئه الدرس والتأمل والتأسى ، وعشت فى دنيا غريبة غير دنيا الناس ، أصارع أشجانى ، وأدافع خيالاتى وأطرد فكرية عبثاً من أحلامى . . أينما أدرت بصرى كان يباغتنى وجهها .. وأتلفنى شوقى ، وأضلنى أساى وهواى ، ويئست من نفسى ، وأسلمت قيادها للأحزان . . ومضيت فى دراستى بعقل شارد . . كنت أقرأ ثم أستعيد ما قرأت فإذا بيد خبيثة قد مسحت عن ذهنى كل شىء ، وإذا بى صاحب ذاكرة مطفأة وفهم مريض . كنت أعتقد أننى سأخفق فى امتحان الليسانس ، لكن حدثت الأعجوبة . . نجحت . .

وإذا فكرية فى حجرتى ! .

قالت : « كنت أقرأ الأهرام ورأيت اسمك بين الناجحين ، وذكرت الماضى فجئت أهنئك . طالما حلمنا معاً بسعادة الليلة التى تحصل فيها على الليسانس . وتواعدنا أن نقضيها متعانقين ، وهأنذا أبر بوعدى . لقد خنتك . . خنتك . لكننى لك الليلة . . الليلة فقط . وغداً لغيرك . لم أجئ لأخدعك . . إننى مخطوبة .. »

ودنوت منها . . ولطمتها .

ووقفت تبكى وهى خافضة الرأس . . وراقنى أن أراها ذليلة معذبة وهى سبب عذابى . ولكنى فوجئت بغضبى يتراجع أمام دمعها المنهمر ، وترنح قلبى وأنا أرقبها وصدرها يضج بالبكاء . . ما أضعفنى ! . كرهت الناس ونفسى لكنى لم أكرهها . . هذه الغرفة كانت سمائى السابعة ولم تصبح حقيرة رطبة إلاّ يوم هجرتها وهجرتنى .

ووجدتنى أضحك منها ومن نفسى ضحكاً كالبكاء . . هذه الفتاة التى وهبتها قلبى ووضعت فيها أملى، ومنحتها من نفسى كل شىء حتى لم أعد شيئاً ، تأتى لتسخر منى . لتصارحنى أنها لم تعد لى .

وهممت أن أطردها لكنها وضعت أناملها على شفتى لتمنع ما تتوقعه من كلمات قاسية ، وألقت رأسها على كتفى ، وانساب فى أذنى همسها خجولا مبللا بالدمع : « قبلنى فى فمى . . انزح قبلاتك القديمة . . أحسست فجأة بروحى ممتلئة منك فأتيت إليك لتفرغ ما بنفسى من هواك . . أريد أن أذهب إلى الآخر فارغة . . لن أخدعك وأزعم لك أنى أتزوج مرغمة . . مأساتى أنى أحبك وأحبه أكثر . . خفت عليك أن أكون لك وقلبى معه . . أنا حائرة حيرة شديدة . . أنا مجنونة . . » .

وحاولت أن أدفعها بعيداً . . حاولت بفكرى فقط . . بقى رأسها على كتفى . . وأنا أصغى لنحيبها تبخر غضبى للكرامة . . وأنفاسها اللاهثة امتصت كبريائى . . وحنوت عليها وأنا أخبئها فى حضنى ، كما يحنو الطائر على وكره المهدم . .

يا لها من ساعة سعيدة كلها تذكارات عذوبتها فى مرارتها . أخدعنا الزمان وعشنا فى الماضى ؟ أم الزمان خدعنا وأوهمنا أننا فى صباح حبنا لا فى مسائه ؟ لست أدرى . . وإن كنت أدرى أننا تواعدنا أن نلتقى وكلانا يرى فى عينى صاحبه أن هذا لن يكون . لأن الكأس التى كنا نشرب منها قد تصدعت . وأعطت فى تلك المرة الأخيرة خمرها الأخيرة، رشفناها وهى تنساب من شقوق الكأس . وعندما سحبت يدها من يدى وهى تغادر غرفتى أحسست أن الكأس قد انشطرت . .

* * *

ومرت أعوام . . لم أر فيها فكرية ولم أسمع عنها . وكنت قد وفقت فى المحاماة ، وافتتحت مكتباً فى القاهرة . وذات مساء دخلت مكتبى فوجدت سيدة فى انتظارى ، وإذا هى فكرية وفى يدها صبى فى الرابعة، وقرأت فى قسماتها أنها غير سعيدة .

قالت : « لو كنت أملك أجر محام لما جئت إليك . لا حق لى أن أظهر فى حياتك ، لكننى لم أجد مفرًّا . أنت المحامى الذى يرضى أن يدافع عنى بغير أجر . لقد خاصمنى زوجى وطردنى وطفلى . وقد استصدرت ضده حكم نفقة منذ سنة ونصف . لكننى لم أستطع التنفيذ . إنه يتهرب من الدفع بشتى الحيل والألاعيب . هل تكره أن تساعدنى . . إن لم يكن من أجلى فمن أجل هذا الصغير . . لم أعد أحتمل أن أعيش عالة على الأقارب . »

كانت فكرية تعرف أنها تأمرنى وهى تتوسل إلىّ . . قرأت ذلك فى عينيها . .



ورددت إلى السحر القديم فجأة . . أصبحت فى غمضة عين طالب الحقوق الذى كان يرتجف من الحب والوجد ، وينام ليله على شوك السهر ، ويقضى نهاره فوق جسر التسهدات ، وقد التفت حول ساقيه أفاعى الغيرة .

واستنجد طالب الحقوق بالمحامى الرزين وأهاب به : « كان ذلك من عشر سنين .. إنك الآن رجل آخر » .

وقبل المحامى النصيحة وقال لفكرية فى تؤدة : « اطمئنى ياسيدتى سنحصل لك على حقك » .

* * *

وتعقبت الزوج بسلسلة من الدعاوى والحجوزات .. ونجحت فى إبطال كل البيوع الصورية التى افتعلها تخلصاً من الدين .

وذات مساء ، وأنا فى مكتبى تسلل طالب الحقوق على أطراف قدميه ، ووقف خلفى يهمس فى أذنى : «حقـًا إن المحاماة مهنة النجدة .. ولكننى لا أظنك فى قضية زوج فكرية محامياً فقط . . إنى أشم بين جنبيك رائحة الكبد المحترقة . . إنك تكره الرجل لأسباب أخرى لا تخفى علىّ » .

وقطع الحديث وصول الزوج .. كان قد طلب موعدا من محامى زوجته ؛

وظل طالب الحقوق واقفاً إلى جوارى ينظر معى إلى الزوج ورفض أن ينصرف .

وبعد حديث قصير تبينت أن وراء إضرابه عن دفع دين النفقة سبباً يخفيه . . إنه يريدها أن تعود إليه .

وجدت نفسى ممتعضاً من رغبته ، واندفعت أقول له : « إن موكلتى مصرة على الطلاق » .

واحتقن وجهه من الغضب . وألقى على المكتب حزمة من الخطابات وهو يصيح حانقاً : « مصرة على الطلاق لكى تذهب إلى هذا النذل الذى يبثها لواعج غرامه » .

وبدأ يقرأ . .

ولم أكن فى حاجة إلى أن يلقى على سمعى تلك العبارات الملتهبة فقد كانت من إنشاء طالب الحقوق الذى يقف خلفى ، كتبها إلى فكرية عندما كان ينعم بالحب فى الأيام الخالية .

وقاطعته : « هل تحققت يا سيدى من تاريخ هذه الرسائل . فلعلها سابقة على الزواج .. وليس من العدل أن تحاسبها على ما بدر منها قبل أن تعرفك » .

وأجابنى وعروقه تنفر فى عنقه من الغيظ : « هبها رسائل قديمة . . لماذا تحتفظ بها . . لماذا تتسلل من الفراش ، بعد منتصف الليل ، وهى تحسبنى نائماً لتذهب إلى أقصى حجرة فى البيت ، لتنفرد بها وكأنها تنفرد بكتاب صلاة . . إننى ما أحجمت حتى الآن عن التشهير بها إلا إكراماً لطفلى » .

وانتفض طالب الحقوق الذى كان يقف إلى جوارى وتقمصنى .. وحاول أن يكون سيد الموقف . . ولكننى تذكرت فى اللحظة الحاسمة بعض قواعد لعبة الجودو .. وصرعته .. وشددت وثاقه ، وحبسته داخل عقلى .

وقلت له ، وأنا حزين من أجله : « يابنى .. إن بقاءها مع زوجها هو الضمان الوحيد الذى يعصمنى من العودة إليها .. لو عدت إليها ماذا يحميك من أن تهجرك إلى زوجها الحالى أو إلى رجل آخر ، ثم تقول لك ببساطة : « اكتشفت أنى أحب هذا الرجل أكثر منك .. لا أريد أن أخدعك وأبقى معك .. وقلبى معه ! .. »

وقبل طالب الحقوق النصيحة على مضض .

ولم يتدخل وأنا أعقد الصلح بين فكرية وزوجها .. تنازلت عن متجمد النفقة .. وتنازل عن الرسائل وقبل أن أمزقها .. ورضيت أن تعود إليه .

ووضعت فكرية يدها فى يدى مودعة .. وقرأت فى عينيها أنها تريد أن تقول لى : « أيها النذل .. كنت قد بدأت أحبك أكثر منه ! .. »

* * *

ومنذ أيام

قصدت إلى المدينة التى تلقيت فيها دراستى الثانوية إلى جانب صديقى « زكريا » لأترافع فى قضية . وفى الغروب حملتنى قدماى إلى حيث الساقية التى كنت أجلس عندها معه منذ عشر سنوات ، فإذا بها باقية كما هى ، وإذا كل شىء كما كان إلا لحية عم « منيسى » صاحب الحقل التى صارت صافية البياض بعد أن كان لونها لا إلى البياض ولا إلى السواد .. وجلست أنظر إلى الماء المتساقط ، وأحدق إلى القواديس وهى ترتفع وتنخفض ، وقد نما عليها الطحلب ، وصارت لها كسوة خضراء . وأخذت أصغى لصرير الساقية ، وسمعت جرس العشاء ينادى الجائعين

من تلاميذ القسم الداخلى ، فذكرت زكريا ، وأحسست أنى جائع ، وودت لو أجرى نحو المدرسة كما كنت أفعل فى الماضى ، لكنى ذكرت الشارب الذى يثقل شفتى ، وأحسست أن العشر سنين تسقط كلها أمام ناظرى ، وتكون حائطاً يفصلنى عن صباى . ووقعت عينى على زوج البقر وقد عصبت أعينه وأخذ يدور ويدور . .

أكنا أحسن حالا أنا وصديقى زكريا من هذا البقر الأعجف المعصوب العينين ؟ ألم يكن « المستقبل » محجوباً عن أعيننا ؟ أكنت أعرف أننى سألتقى بمادلين وبفكرية ، وأن زكريا سيذهب إلى فرنسا ويعود بعروس من عرائس السين تموت على ضفاف النيل بعد سنة ، وهى تضع ابنها البكر الذى كان براً بها ففاضت روحه مع روحها ؟!...

كأن صاحبى « زكريا » لا يزال جالساً معى عند الساقية . . كأن حديثه لا يزال عالقاً بجو هذا الحقل : « سأصير طبيباً عظيماً ، وسيكون لى مستشفى اسمه مستشفى الدكتور زكريا ، وسنأتى إلى هذا المكان فى صحبة زوجاتنا ، من أجل الذكرى ، زوجتى فى ذراعك وزوجتك فى ذراعى ، وأطفالنا أمامنا يمرحون . أول أبنائك يحمل اسمى ، وأول أبنائى يحمل اسمك ، أولى بناتى باسم زوجتك ، وأولى بناتك باسم زوجتى .. سنكون معاً دائماً . لن نفترق . هذا عهد . . »

مسكين زكريا ! لقد قدر لكن الأقدار ضحكت . بعد كل هذه الأعوام ، ليس له زوجة ، وليس لى زوجة ، وليس لنا أبناء . . ولم « أفك » أنا حبلا واحداً عن رقبة مشنوق ، ولم يصر صاحبى طبيباً عظيماً .

ولا صاحب مستشفى . . كل زبائنه من الخيل والبغال والأبقار التى تملكها وزارة الزراعة ، فقد « لعب » فى فرنسا وعاد طبيباً بيطريًّا فقط ، ووظف فى الحكومة ، وألف القعود ، ولم يعد الغلام النحيل الجميل ، بل اكتنز جسمه شحماً ولحماً ، وتدلت تحت ذقنه حقيبة تحوى أقة من الدهن . . كم أشفق عليه كلما زرته فى محل عمله ، فوجدت العرق يقطر من وجهه ومن حوله « الحداوى » وأدوات « التطبيق » ! وكم أدهش كلما دخلت عليه فى بيته فوجدته « يهوّم » فى كرسيه أو يقرأ فى كتب صفراء حواشيها أطول من متونها . . يحدثنى عن النقشبندى والقلقشندى ويحاول جهده أن يفرّ من حاضره ويدفن حياته فى مجاهل يختفى فيها عن ذكرى زوجته العزيزة الراحلة . .

عند الساقية أخذت الذكريات تساقط شجنها فى قلبى ، كما تساقط القواديس ماءها فى الحوض . وظللت أصغى لقلبى وهو يمتلىء بالأحزان ثم قلت لطالب الحقوق ملاطفاً : « هيا ننصرف من هذا المكان » .

وألقيت نظرة ورائى وأنا أسير ، فرأيت عم « منيسى » واقفاً يغنى مواله القديم « جمل الهوى عضنى ، وجات عضته شوم » وهو يحكم وضع العصابة على أعين بهيمته . .

والترس يصرّ كأنه يحكى قصتنا ساخراً . .

والساقية تدور . .

* * *

قلت لمحدثى « الأستاذ بهجت » وهو يرفع كأسه إلى شفتيه : « إنها تدور فى رأسك » . .

وناديت « جارسون » الكازينو لأدفع له الحساب، لكن بهجت طلب كأساً أخرى . فلما ذهب الساقى ليحضرها سألته : « ومادلين ؟ ماذا جرى لها ؟ » . .

قال لى « صه . »

وكانت تمر أمامنا وقتذاك غادة تدفع أمامها عربة طفل ، فلما ابتعدت رفع كأسه إلى شفتيه وأجابنى من وراء الكأس وهو يبتسم : « إنها هى . إنها زوجة صاحب الكازينو » ..

وفهمت سر إقباله على الشراب . وسر حبه لزكريا . . وسر تردده على هذا الكازينو بالذات . .

* * *

ربّنا... يفرجها!!



بعد مرور ستة أشهر على الزواج ارتفعت الكلفة بين بهية وفوزى .. ووجدت الجرأة على أن ترفع عينيها إلى وجهه وهو يقبّلها . . ثم وجدته الشجاعة على أن تقول له وقلبها يكاد ينخلع من الخجل : « هات لنا تلفزيون » .

وسكت فوزى لحظة قبل أن يجيب ، وكاد قلب بهية المضطرب أن يقف ، خشية أن تكون جاوزت بهذا الطلب حد الأدب . . فإن بهية كانت قادمة من الريف . . ولقد لقنت هناك ، فى كفر عشم الله ، قبل رحلتها الميمونة إلى القاهرة ، أن الرجل هو السيد المطاع . . وأن بنت الناس الطيبين لا تخاطب زوجها إلا إذا وجه إليها الحديث ، ولا تقول له « أريد » ، لأنه وحده صاحب الحق فى أن يريد أو يزهد .

وفى اللحظة التى استولى فيها على فوزى الصمت توقعت بهية أن يصفعها رجلها أو ينتهرها على الأقل . . فلما قال لها بصوت رقيق : « ربنا يفرجها » لم تصدق لأول وهلة أنها نجت . . ودوى فى أذنيها وجيب قلبها . . وقاربت الإغماء من فرط فرحتها بالسلامة . .

* * *

ولم يكن فوزى نجافياً غليظ القلب كما أرادت زوجته أن تتخيله ، وقد أسرفت على نفسها فى التوجس عندما حسبت أن كل الأزاج على

شاكلة أبيها ، يغاضب أمها فتشارك عقيرته عصاه فى الغضب . وإذا لم يلق عليها يمين الطلاق واكتفى بزواج آخر ، كان فى منتهى الكرم !

وعندما فوجئ فوزى بهذا التوقير الذى جاءه طائعاً يجرر أذياله لم يزهد فيه ، واستمرأ المهابة ، ولبس لبهية جلد الأسد .

وعندما رأى فوزى أنه أعجبها فى الزى الجديد خرج به إلى الناس ، ولكن أصحابه والذين عرفوه من قبل لم يصدقوه ، ولم يأخذ أبصارهم منه إلا فرو الحمل .

وقد غفر فوزى للجميع ، وهو مبتئس ، ذلك الانتقاص من قدره ، لكنه لم يستطع أن يغفره للأسطى محسن صاحب صالون الحلاقة الذى يعمل فيه . . باليومية .

برغم أن الأسطى محسن يعرف أنه « تأهل » فإنه لايزال فى نظره صبيه . . حقاً إن فوزى دخل الدكان وهو غلام فى العاشرة ، مهمته أن يمسك المنشة ويطارد بها الذباب الذى يحاول أن يحط على وجه الزبون أثناء الحلاقة . ولكن ذلك كان من زمان . . منذ اثنى عشر عاماً . . أما الآن فقد حذق الصنعة ، وصار من حملة المقصات . . وصار أيضاً زوجاً لبهية . . فكيف يرسله صاحب الدكان لشراء اللحم والخضار كما كان يفعل من قبل . . ولو اكتفى بهذا لهانت البلوى . . ولكنه يقول له أيضاً أمام الزبائن : « يا واد » .

* * *

وذات ليلة باح لبهية . . قال لها : لم أعد أطيق هذا الذل . .
سأفتح « صالوناً » خاصًّا بي .

وخلعت بهية من معصميها الأساور الذهبية التي جاءت بها من
بيت أبيها تأييداً منها للمشروع . . وقال فوزي لها وهو يقبلها : « لا تحسبي
أني نسيت. . ربنا يفرجها وأشتري لك التليفزيون » .

وعاشت بهية مع الحلم الجميل . رأت بعين الأمل إقبال الزبائن
على « صالون » الانشراح ، وقال لها التفاؤل إن انتظارها للتليفزيون لن
يطول . . وتخيلت نفسها قابعة إلى جواره تدير الأزرار ، فيمتلئ البيت
بالصور والأنغام، وتمسك بيدها الأغاني التي تحبها ، وتشاهد الأفلام وتتابع
الحلقات .

ومرت الشهور . . كلما قرأ فوزي في عينيها أنها موشكة أن تسأله :
« متى تشترى التليفزيون » بادر إلى لقاء السؤال في منتصف الطريق . .
وقال لها بابتسامة تنضح طيبة : « ربنا يفرجها » .

وكانت بهية تحمل في قلبها الابتسامة الطيبة ، وتتلكأ أمام واجهات
الحوانيت التي تعرض أجهزة التليفزيون كلما أذن لها زوجها بالخروج ،
وكانت تعود وفي قدميها ألم من السير الطويل . . وفي قلبها نشوة ،
وصورة لآخر جهاز استقر عليه رأيها .

* * *

ولكن الشهور تحولت إلى سنين والحلم لايزال حلماً . . في العام الأول
كان « صالون » الانشراح لايزال يتأرجح بين الإخفاق والنجاح .. وفي

العام الثانى حدثها فوزى عن ضرورة إضافة كرسى آخر بالمحل بما يلزمه من مرايا وأدوات . . وأسطى باليومية استكمالا لمظاهر « الصالون » الكبير . . وفى العام الثالث علق فوزى لافتة مكتوب عليها : « قسم خصوصى للسيدات » ، وأضاء اللافتة بالنيون . وجاء بحسناء لكى تجلس على « الكيس» !

* * *

وفى العام الرابع قال فوزى لزوجته وهو يتنهد بارتياح : « نستطيع الآن أن نشترى التليفزيون» ، ولكن بهية لم تتحمس للفكرة . . كان حلمها قد سقط إلى قاع حياتها الراكدة وصار آسناً .

إنها غير الفتاة التى كانت منذ ثلاث سنوات . . شغفها بالأغانى أخلى الطريق لشغفها بصوت طفلتها فواكه . . والمسلسلات تصلها من راديو الجيران الذى « يزعق» «بأعلى صوته فى الليل والنهار .

وقالت بهية لزوجها وهى تضع على خده قبلة حيية . : . نعم وجدت الشجاعة لتبدأه بقبلة بعد عشرة السنين : « ما نفعنا بالتليفزيون.. دوشة دماغ وقلة عقل » .

ولكنه جادلها فى ذلك . . ووجدت نفسها تقول : « إذا كنت مصراً أن تشترى لى شيئاً فإنى أفضل أن أستعيد الأساور . . إنى أحس بحرج كلما زارنا أبى ونظر إلى يدى العاريتين » .

وصمت فوزى لحظة . إنه كان يعتمد فى شراء التليفزيون على التقسيط . . وهو نظام لم يتسرب بعد إلى الصاغة . . وبعد الصمت

القصير قال فوزى لزوجته وهو يضمها إلى صدره : « ربنا يفرجها » قالها وهو صادق العزم أن يحقق وعده فى القريب .

* * *

ولكن العام التالى لم يكن عاماً سعيداً . . فإن مأمور الضرائب جاء إلى المحل ، ومن سوء حظ فوزى أن الكراسى كلها كانت مملوءة ، وأن بعض الزبائن كانوا فى الانتظار . . وظن السيد المأمور أن هذا يحدث طول النهار . . وعندما تلقى فوزى خطاباً مسجلا عليه ختم الحكومة تولاه الزهو . وسكنت أصابعه المرتعشة ، وهو يفحصه ، تكهنات سعيدة . . ثم مرت عينه على السطور ، وصرخ كأنه جلس فجأة على خازوق : « إنه إخطار ربط الضريبة » .

وعاد إلى البيت والخازوق فى ظهره ، وقال لزوجته وهو يبكى : « هذا المبلغ المطلوب منى أن أدفعه ضريبة لو كنت كسبت نصفه طول العام لاستعدت لك الأساور من زمان » .

وقالت له بهية وهى تهون عليه أمر الخازوق : « أنت تذهب إلى عمك الأسطى محسن وتستشيره فى الأمر . . وأنا أذهب إلى السيدة زينب وأشكو لها مأمور الضرائب » .

* * *

ونظر الأسطى محسن إلى صبيه القديم من فوق إلى تحت ، وقال له وقد وجد أخيراً الفرصة للشماتة : « تأتينى بعد خراب بصرة . . أنوار نيون . . وقسم خصوصى للسيدات ، وشناة على الكيس ، وتريد أن

تعتقلك الضرائب . . هل تظن أنى أترك القطن مطلا من المقاعد، والمرايا مكسورة ، والفرش متآكلة قصر ديل ؟ إنى أفعل ذلك لكى يراه المأمور فلا يتجبر » . وانتقل الأسطى محسن من التقريع إلى التدبير ، وقال لفوزى بلهجة العالم ببواطن الأمور : « إن المآمير يأكلون . . واطعم الفم تستحى العين » !

* * *

وعمل فوزى بالنصيحة .. وكانت عالية جداً هذه النصيحة . . كلفته ثلاثة أعوام من عمره فى السجن ، بتهمة محاولة رشوة موظف عمومى .

ولكن الدكان ظل مفتوحاً مدة غيابه ، فإن بهية لفت نفسها فى ملاءتها، وجلست على الكيس ، تراقب الأسطوات وتحاسب الزبائن ، ونظراتها الحلوة صارمة . . ووجهها الصبيح صائم عن الابتسام . وقلبها مملوء بصورة شاب تتقلص يداه، على قضبان قفص الاتهام وهو يسمع الحكم .

* * *

وعند انتهاء مدة العقوبة استقبلت بهية بعلها على باب السجن بالمزيكة وسقت الشربات . . وكانت ليلة للأحباب . . ولم يستطع فوزى أن ينفرد بها ويضمها إلى صدره إلا والفجر يقترب .

وهمست بهية فى أذنه وأهدابها تتعثر فى الخفر القديم : « سددت الضرائب ، وأتعاب محامى الابتدائى ومحامى الاستئناف . . ودكان

الخردوات المجاور دفعت لصاحبه خلو رجل وضممته للمحل . . والأشيا رضا والحمد لله . . » .

وقاطعها فوزى وهو يشتد فى ضمها : « والأساور ؟ . . حذار أن لا تكونى قد استرددت الأساور » .

ووجدت المرأة لتطلق ضحكتها فى صدره وهى تقول اه : « مازلت تذكر . . إنى أنا نسيت » .

وتغير صوته من الحب إلى العتاب وهو يقول لها : « كان يوقظنى من نومى فى السجن الندم لأنى لم أسترد لك الأساور» . قالت له بصوت قرير : « كنت أريدها لكى تراها أنت وتسمع رنينها فى معصمى . . فلما ذهبت ماتت الرغبة . . كلها كام سنة وتحتاج ابنتنا فواكه لأساور وجهاز . . يجب أن نكون عقلاء » .

ولكنه رفض العقل . . وتشجعت بهية وقالت : « إذا كنت حقًّا تريد أن تحقق لى أمنية فاعلم أن أمنيتى أن أحج إلى بيت الله » .

وصمت فوزى قليلا . . وأدار بعض الأرقام فى رأسه . . حقًّا إنه لا يوجد الآن رصيد . . ولكن لا يزال بينهما وبين موسم الحج بضعة أشهر .

وخرج من صمته وقال بحنان : « ربنا يفرجها» .

* * *

وانتظرت بهية الفرج ، ولكنه أبطأ ذلك العام فإن أحد زملاء فوزى فى السجن زاره بمجرد الإفراج عنه . . وبدأ يحلق عنده ذقنه كل يوم .

وكان رجلاحلو اللسان . . كان يقول له ورأسه تحت الماكينة « الزيزو » :
«هذه الطاسة يا فوزى مملوءة بالمشاريع .. ولكنك تعلم أن الإنسان يخرج من السجن خاوى الوفاض » .

وآمن فوزى بالعبقرى . . وتبنى فكرة إنشاء مصنع للعطور ، وباع المنزل الصغير الذى كان يأويه . . واقترض ما استطاع . . ووضع المال فى يد الاقتصادى الذى ملأ رأسه بأحلام الثراء .

ولكن الاقتصادى اختفى فى اليوم التالى ، وترك الممول التعس فريسة لأصحاب الكمبيالات . وبعد أشهر قليلة بيع الصالون فى المزاد ، والذى تكون له زوجة مثل بهية يسقط لكنه ينهض من كبوته من جديد . ولذلك لم يعمل فوزى أجيراً فى صالونات أخرى إلا سنين قليلة ثم أصبح صاحب صالون من جديد .

* * *

وذات مساء قال فوزى لزوجته وهو متهلل الوجه إنها تستطيع أن تحج هذا العام . وصمتت بهية هذه المرة .. صمتت لكى تسأل نفسها : هل تقول له إن الألم بدأ وهو فى السجن ولكنها احتملته . . لم يكن لديها وقت . كانت مضطرة أن تجلس على « الكيس » طول النهار . وفى العام الذى حلم فيه فوزى بمصنع العطور لم يعد الألم محتملا . . وذهبت سرًّا إلى طبيب . . وصارحها أنها أورام خبيثة ، وأن العملية ضرورية . . ولكنها لم تشأ أن تزعجه . . تكفيه هموم المحجوزات .

ولأمر ما سكت الألم .. سكت إلى حين. وحسبت أن المرض ذهب..

ولكنها الآن تدرك أنه لم يذهب ، ولكنه يئس من الشفاء .

* * *

وعندما طال صمتها قال لها فوزى : « استعدى للحج » .

ولكنها ابتسمت وقالت : « لا رغبة لى فى الرحلة . . أمنيتى أن نشترى « حوش » . . أن يكون لنا مكان فى القرافة . . فظيع أن يموت الإنسان ، ويلقى فى مقابر الصدقة » .

وبعد نقاش اقتنع برأيها وقال لها : « ربنا يفرجها »

* * *

وذات مساء بهيج هتف فوزى من بئر السلم وهو يصعد الدرجات وثباً : « بهية » . .هل تعلمين ؟ .. وجدت نفسى أمام المحتال وجهاً لوجه . . وأمسكت بتلابيبه . . ولكنه قال لى إن أحواله معدن . . وإنه يكره أن يعود إلى السجن . . وأعطانى المال . . ابشرى يا بهية . . سنشترى الحوش ونبنى المقبرة » .

ولم تجب بهية . . وهزها ولكنها لم تتحرك . . ونظر إلى وجهها . . كانت عليه ابتسامة صغيرة تتعثر فى الخجل والحياء . .

وقالت له الابتسامة : « معذرة . . إنك تأخرت قليلا . حاولت أن أنتظرك وعجزت . . ولكن عشاءك . . معد على المائدة » !

* * *

الحبّ أقوى من الموت!



سئم محسن العاصمة . . إن العيش فيها متشابه ، وممل ، ومرهق للأعصاب . . إنه يستيقظ كل يوم فى الضحى ، فتطوف برأسه الذى يحطمه الصداع خواطره الكليلة وتذكاراته المختلطة عن سهرة الأمس . . إنها دائماً كسابقاتها . . ماذا غير الطعام والميسر ، والخمر ، والنساء ؟ . . قليلة هى الأشياء التى تستكبر على ثراء وارث شاب ، يبعثر النقود بلا احتراس كما تبعثر ضربات أنامله الرماد الذى ينبعث من جذوة سيجارته !

فتح محسن عينيه فى ذلك النهار قرب الظهر . . وبدأ يطالع الصحف ، وهو فى سريره ، بفتور ، وبلا رغبة . . ثم ألقاها جانباً وأخذ يحدق إلى السقف بتبلد . . إنه يكره أن ينهض ليذهب ، كالعادة ، إلى مقهاه المختار فى شارع فؤاد الأول ، ليحتل كرسيه على الإفريز ، يحملق فى سيقان الغاديات والرائحات . . ويدرس بأناة ودقة صحيفة السباق ، ليختار الجياد التى يلعب عليها . . ثم يستعين بكؤوس من الوسكى على التفكير فى برنامج الليل . .

حدث كل هذا مرات كثيرة من قبل . . وسيحدث اليوم أيضاً . . هذا الفراغ هو عدوه اللدود وخصمه العنيد . عندما مات والده منذ عامين انقطع عن الدراسة فى كلية الهندسة . . رأى فى ذلك الحين أن الأجدر به أن يدير أملاكه بنفسه ، وأبى أن يخضع لمشقات الدراسة وسيطرة الأساتذة

وذل الامتحانات . . إنه ليس بحاجة إلى وظيفة يعيش منها وقد صار الوارث الوحيد « للعزبة » . . وكم هو نادم الآن لأنه حطم حياته الفكرية وسرعان ما مل إدارة أملاكه ، وترك ذلك إلى موظفيه ، وانصرف إلى مسراته ، فعب منها حتى عافها . . وها هو ذا يتوسل إلى الساعات أن تأتى بجديد ، وتنقذه من الضجر . .

وبدا له عندما أتمّ ارتداء ملابسه أن يتوجه إلى الريف . . إلى ضيعته ، و يبقى هناك وقتاً ، بعيداً عن الضجيج ، والخلان ، والصاحبات ، والرقص .. لعل الهدوء والصفاء يغسلان أعصابه الملوثة المضناة .

كان الريف يودّع الخريف ، والنسيم قد بدأ يرق ويمسح بكفه الندية على النفوس المتعبة . . والسماء الصافية قد بردت أطرافها لاقتراب الشتاء ، وبدأت تتدثر بالغمام وكأنه ثياب باهرة من القطيفة الفضية . . فأحب محسن الحياة هناك ، وأقام أياماً فى أحضان السكون ، فى البيت الريفى الصغير الضائع فى الحقول . .

* * *

وفى الضيعة رأى محسن فاطمة .

كانت فاطمة هى زوجة عليوة سائق الدوكار ، وكانت صبية رائعة الحسن ، تزوجها عليوة منذ بضعة أشهر . . ماتزال الحناء تضحك فى كفيها . . ولا يزال الكحل يثقل أهدابها ، ويطرح ظله الساحر على الذهب المذاب فى عينيها العسليتين الواسعتين .

وكانت تحمل فى البكور اللبن من الحظيرة البعيدة إلى البيت ،

ليعد منه إفطار السيد . . فألف أن يراها كل صباح تقبل تتهادى بذلك القوام الخالد الممشوق الذى تمتاز به الريفية المصرية . . وكانت تحييه وكل مسام وجهها تبسم !

وصار محسن حريصاً على أن يستيقظ مبكراً لكى لا تفوته تلك الابتسامات التى تطيب نفسه بالحصول عليها فى فاتحة نهاره .

وعندما كانت تعود كانت نظراته تتبعها .

وبدأ يحس أن هناك صلة بين شبابها المتفجر والقلق المبهم الذى أصبح يلتهم ساعاته . . إن نظراتها الخجلة تحفر فى قلبه هوة عميقة .

ومضت أيام . وإذا هو يسبق فى كل صباح إلى حظيرة الماشية ليرى فاطمة هناك وهى تحلب الأبقار . . وتبخرت أرستقراطيته حتى لم يعد يجد غضاضة فى أن يعاونها ، ويمسك بين يديه الأوعية التى يتساقط فيها السائل النقى الأبيض .

وصار يكثر كلما رآها ، من الضحك والمزاح .. لكنه خجل مع ذلك أن يعترف لنفسه أنه عاشق .

وقد لقى مراراً فاطمة وحدها . ولم يكن فتى عفيفاً ، لكن أساليبه الناعمة أخفقت مع القروية الحسناء ، وسرعان ما تبين أنه لا مغمز فى خلقها ، وأنها لن تكون أبداً سهلة القياد .

ويدأ يحسد عليوة سائق الدوكار ، الذى يستمتع بهذا الجمال المنيع . .

وكان عليوة فلاحاً فى الخامسة والعشرين ، يخدم فى العزبة كما خدم

أبوه من قبل ، ويتقاضى جنيهاً كل شهر ، وذلك المبلغ كان يجعله عيناً بين أنداده ورصفائه ، فكان راضياً عن الحياة سعيداً بعيشه الوادع وكان يميزه فى بيئته قوامه المرتفع ، وعضلاته الشداد ، ووجهه الوسيم الذى تزينه تلك العصفورة الخضراء المرسومة على صدغه . وكان يبدو على مقعده فوق الدوكار يكاد يترنح زهواً فى جلبابه الأبيض النظيف . فكانت النظرة المنصفة تحكم أنه كفء لفاطمة التى ناضل فتيان القرية ونافسهم وحصل عليها دونهم ، لكنه مع ذلك بدأ لا يروق لمحسن ، وبدأ يعامله باحتقار ، ويخاطبه بلهجة تفوح منها رائحة النفور . . فقد كان واثقاً أن عليوة من ذلك الطراز الذى يأبى الضيم ، وأنه لن يكون أبداً رجلا مخدوعاً ، وأن الهبات لن تغمض عينيه .

وغادر محسن القرية ونار الرغبة فى زوجة عليوة تستعر بين جنبيه . وكان يأمل أن يطفئ لوعته الجديدة فى كؤوس الوسكى ، وفى رضاب الغانيات ، لكن وجه فاطمة ظل يرافقه ، ولم ينس أبداً الفتنة النائمة فى ملامحها العذبة المضنية .

* * *

وأيقن أنه ترك قلبه فى العزبة .. وعاد . إلى هناك .

وكان عليوة ينتظره بالدوكار على محطة القرية ، ليحمله إلى الضيعة .

وعندما رأى الفتى سيده سعى إليه بوجه مشرق ، وانحنى على يده ليلثمها ، ككل مرة ، لكن محسن جذبها منه بخشونة وجفاء .

إنه يجد الآن أن عليوة ثقيل الظل . . إنه يكرهه .

فى الماضى ، طيلة مسير الدوكار نحو الضيعة ، كان محسن يملأ تلك الساعة بالمزاح ، ويسأل عليوة عن شئونه ، ويتبسط معه ، ويمنحه سيجارة يأمره بتدخينها . . أما هذه المرة فإنه ظل صامتاً ، ولم يطلب إلى الفتى القروى أن ينشد أحد مواويله التى يتصاعد الدخان من كلماتها الملتهبة .

ورأى محسن فاطمة مرة ومرة . . ولكن تعذر عليه أن يلمسها ، وصرخ الحيوان المفترس الرابض فى أعماقه ، وعض قلبه الطائش بلا رحمة .

وأيقن أنه لن يصل إلى أمنيته ، ولن يحصد ثمار أحلامه مادام عليوة فى الطريق .

وانقلب كرهه إلى غضب . . وأحس كأن هذا الخادم الحقير يتحداه بوجوده . . ويقف فى وجه رغبته .

وبدأ يبعث به فى مهام شاقة معقدة تستغرق وقتاً طويلا فى البلدان المجاورة ، ليقضى الليل بعيداً عن بيته .

لكن فاطمة ظلت سيدة نفسها ، وانتصر الزوج الغائب على المغازل الغنى الجميل .

واستفحل غضب محسن . . وتطاير فى رأسه شرر الحقد . .

ماذا لو مات عليوة ! . .

فاتذهب حياته رخيصة كحياة أولئك القرويين الذين يصرعهم الرصاص فى الحقول والسكك الزراعية ، وما هى إلا أسابيع ثم يصبحون فى ذمة النسيان .

وعندما يذهب ستكون فاطمة سهلة المنال . .فلا أهل لها إلا أمها ، وما أيسر أن تغدو الحسناء الفقيرة خادمة عنده فى المدينة ، أو فى منزله الريفى ، حسبما يحلو له . فهل يغرى به أحد المجرمين الذين يحترفون القتل فى الناحية ؟ ! كلا . . إن الأسلم أن يجهز عليه بنفسه ، بطلقة من مسدسه ، وما أكثر الفرص السانحة . .

وهمست شهوته العمياء : « ما قيمة حياة فلاح . . إنهم يموتون كثيراً كالذباب ، ويولدون كثيراً كالبعوض ، ولا تحس الدنيا بذهابهم ومجيئهم . . سيعوض أهله عن فقده . . وستكون النقود أنفع لهم ، فتجد أخته مهراً ، ويستطيع أبوه أن يستأجر مزيداً من الأرض . . وعطفه على أرملة خادمه سيكون أمراً طبيعيًّا ، ولن يثير ريباً . . .

إنه يعرف أن عليوة ينصرف من عمله فى نحو الساعة العاشرة . . فيذهب إلى الترعة البعيدة أو إلى المصارف الكبيرة التى تصفى فيها المياه المتخلفة من رى الأرز ، ليمارس هوايته المحببة : صيد السمك بالصنارة .

ورسم محسن خطته . سيعثر على عليوة وهو يصيد السمك بعيداً عن الضيعة ، فيرديه بطلقة من مسدسه ، ثم يدفعه بقدمه إلى المياه ولن يعرف أحد . . فإن الزراع يعودون فى المساء إلى القرية النائية ، والحقول البعيدة ترتمى فى الليل فى أحضان الصمت ، وتندثر فيها الحركة ولن يكشف الأمر عاجلا . . ولن تحوم حوله شبهة .

كان محسن يجتر أفكاره تلك وهو عائد فى الظلام من جولة صغيرة على قدميه عقب العشاء .

وحانت منه التفاتة وإذا هو يسير مقابل الدار التى يقطنها عليوة وامرأته . . إن السراج لا يزال ساهراً يطل من النافذة الضيقة نوره الواهن المرتعش . فهل هما مستيقظان ينعمان بالحب !

وقسا قلبه .

* * *

وفى الليلة التالية رأى محسن عليوة وهو يحمل الصنارة والطعم والمخلاة ويتوجه إلى الترعة . . وتريث حتى أوشك الليل أن ينتصف ، ثم تبعه بعد أن أعد مسدسه ووضعه فى جيبه .

ولم يجد عناء فى العثور عليه . . فإن عليوة كان ينوح بموال حزين ، وكان النسيم يتنقل بصوته الرائق . .

وكم ابتهج عليوة عندما رأى سيده .

وقال له محسن : واصل غناءك الشجى .

وكان يتحسس بين كل لحظة وأخرى مسدسه بيده المرتجفة . . ولم يستطع أن يعتقل تصوراته وهواجسه .

إن الحقول لن تردد فيما بعد صدى هذا الصوت الحنون . . إن عليوة لا يعرف أنها آخر أغنية ينشدها . . وأنه لم يبق على أجله المكتوب إلا خطوة . . عجباً . كم هو مطمئن آمن . . آه لو يعرف أنه على حافة الموت .

وفى تلك اللحظة جذب عليوة الخيط ، وإذا فى نهايته سمكة كبيرة ، أخذت تتلوى ألماً وتحتضر ، ولعاب القمر الفضى يسيل عليها .

وحدث محسن نفسه : « إن المسكين يشبه هذه السمكة الغبية التى انتزعت صنارته حياتها بغتة . . عما قليل ستؤخذ أيضاً حياته . . »

وقذف عليوة بالصنارة إلى الماء مرة أخرى وهو يقول : « على بختك يا سيدى » .

وأسر محسن لنفسه : إذا أمسكت الصنارة سمكة فسيرمز ذلك إلى أن فاطمة ستكون من نصيبى .

لكن الطعم ذاب فى الماء ، واضطر عليوة أخيراً أن ينتشل الخيط والصنارة فارغة .

وتشاءم محسن . .

وأخرج سيجارة ليدخنها . .

وبدا له أن يقدم واحدة للفتى الذى يودع الحياة . . طالما خصه فى الماضى بهذه المجاملة الصغيرة . وعندما أعطاه تلك السيجارة الأخيرة أمره أن يشعلها .

ولثم عليوة اليد التى امتدت إليه باللفافة . .

وخزت تلك اللثمة قلب محسن .

أرهقه أن عليوة لا يشك فى شىء . . ولا يدرى أن هذه اليد التى قبلها ستصرعه ، ربما بعد دقيقة أو دقيقتين . .

ووقعت كف محسن على المسدس النائم فى جيبه، مرة أخرى، فأحس ببرودة الصلب تلدغ أنامله . وارتعش ، وآثر أن يتريث . . لا بأس . . فايدخن عليوة سيجارته إلى النهاية .

فتح عطف السيد قلب عليوة ، فأطلق صوته ليناً طروباً بموال كان يعرف أنه قريب إلى نفس محسن .

وكان القمر قد تسلّق السماء ، وتطلّق مياه ، وتناثرت من أساريره بسماته الكبيرة ، فخيل لمحسن أنه يرى فى ضوئه الغامر ، الدم وهو يترقرق بنشاط فى وجه عليوة . . الدم . . الذى سينبثق ويخضب العشب النامى على شط الترعة .

وكانت سحائب الدخان الرقيقة تنبعث من فم عليوة مع غنائه . فيخيل إلى الناظر أن الغمامات الزرقاء الصغيرة هى أجنحة الألحان العذبة .

ووقف محسن خلف الفتى المشغول بالصيد وأخذ يختار المكان الذى سيصوب إليه طلقته .

وفى تلك اللحظة جذب عليوة الصنارة من الماء وقد علقت بها سمكة كبيرة ، واستدار نحو سيده ليقول ، والفرح يملأ عينيه : « إننا ضمنا طعام الغد يا سيدى »!

الغد . .

ومع ذلك فإن الرصاصة ستنطلق ، وسيزمجر دويها : « لا غد لك أيها الرجل » !

سأله محسن : « أتحب السمك كثيراً يا عليوة ؟ »

فأجاب ببساطة : « لا يا سيدى . . لكن فاطمة . . تحبه » .

— ومن أجل ذلك تسهر الليل ، بعد تعب النهار ؟ ! .

ضحكت البساطة المقيمة فى أسارير عليوة ، مرة أخرى وهو يقول :
« فاطمة تفرح عندما ترى الصيد كثيراً ، ومخلاتى مملوءة بأنواعه .. » .
ــ أتحبها . . يا عليوة ؟ . .

رفع الصائد إلى سيده عينين مملوءتين ثقة وصراحة ، وقال : « فاطمة بنت حلال يا سيدى . .. بنت طيبة » .
فعاد السيد يلح : « لكن أتحبها كثيراً ؟ » .

فأجاب ، فى خضوع ، وصوته مثقل بالحنان : « إننى أحبها كعينى . . لو أعطونى ثقلها ذهباً . . لو زوجونى أميرة لأتخلى عنها . . لما رضيت » !

وقال محسن ضاحكاً : « مغفل ! . « فاطمة ليست أفضل من غيرها . كلهن لا قلوب لهن » !

ابتسم عليوة ابتسامة تدل على عدم الاقتناع ، وقال بعد صمت قليل : « أنت لا تعرف فاطمة يا سيدى . . إنها تستحق الحب . . ما بعدت مرة عن بيتى إلا كنت مطمئناً . . مهما غبت أشعر أن الاطمئنان يملأ عروقى وقلبى . . فأنام نوماً عميقاً . . ولا يمر برأسى خاطر سوء . . وماذا يرجو الرجل أكثر من ذلك ؟ » .

وكان عليوة يتكلم وهو يحدق إلى الأمواج الصغيرة الموشاة بأشعة القمر ، ويسكب عليها ابتساماته .

وكأن افتكاره بفاطمة أبهجه . فإنه رفع وجهه بغتة نحو وجه سيده

وقال بحماسة وإخلاص : « نعم يا سيدى . إننى أحبها . . حياتى بدونها لا معنى لها » .

وجد محسن أن يده المنقبضة على مسدسه فى جيبه تتراخى ، وأن أنامله تتخاذل وترتجف . . إنه لم ير من قبل حبًّا واثقاً كهذا .

أحس أن رغبته المحترقة فى فاطمة تهدأ وتنطفئ . . وأنه عاجز عن الغدر بذلك الحنان الفياض الذى يكنه عليوة لا مرأته !

كأن الموت الذى فكر فيه ودبره يهرب من وجه هذا الحب . . وعندما امتلأت جعبة عليوة بالسمك بدا عليه أنه يريد أن يعود ، وتنبه محسن من شروده . . فطلب إلى الفتى أن يمضى لسبيله ويدعه وحده .

وتردد عليوة .. كره أن يترك سيده . . لكن محسن انتهره ، وصرفه . .

* * *

وبقى مع هواجسه وقتاً طويلا .

ولم يعد البرد محتملا ! . فقفل راجعاً ، يجر قدميه وقلبه جرًّا .

ورأى عندما أصبح فى حدود الضيعة ، شبح رجل . . خيل إليه أن هذا الرجل يرقبه ويتبعه من بعيد . فى خفاء وحذر ، وأوجس خيفة . لعل هذا المتسلل ، فى هذه الساعة المتأخرة ، يريد به شرًّا . .

وصاح وهو يغالب ذعره ، ويضع يده على مسدسه : « من هناك » وإذا بصوت عليوة يقول : « أنا . . أنا يا سيدى .. »

واقترب محسن منه وقال له مؤنباً : « لماذا لم تدخل بيتك . . ماذا يبقيك فى الطريق ؟ » .

أجاب عليوة كالمذنب : « كنت أنتظر عودتك يا سيدى . . كيف أسمح لنفسى أن أنام قبل أن تصل . . الحقول فى الليل لا أمان لها » .

وصغر محسن فى عين نفسه . .

وقال لعليوة ضاحكاً : « شكراً . . اذهب واسترح » .

وبعد أن مضى عنه خطوة رجع إليه ، وقال له وهو يناوله المسدس الذى أخرجه من جيبه : « هذا هدية لك . . مادمت تحب الحراسة » .

* * *

وفى الصباح مضى الدوكار بالسيد إلى المحطة القريبة ، فقد اعتزم العودة إلى المدينة . .

وعندما جاء القطار وضع فى يد عليوة كثيراً من القطع الفضية وهو يصافحه بحرارة ، وكأنهما صديقان . .

وعاد سائق الدوكار فى طريق الضيعة جذلان طروباً ، يطلق صوته الرنان بموال حنون . .

وكان طول الوقت يفكر فى . . فاطمة !

المطـــاردة



كانت أمسية من أمسيات نوفمبر التى تنفث فيها الأرض آخر التنهدات الحارة الباقية فى قلبها ، وكنت جالساً مع صديقى زاهر ، بعد أن تناولنا العشاء ، فى شرفة الفندق المطلة على النيل ، نرقب أشعة القمر وهى تتهالك على صدر الموج وكأنما شفها الشوق . .

وكان زاهر شاعراً شابًّا لفتت الأنظار قصائده الأولى التى لمسنا فيها نفحات نبوغ مبكر . . وقبل أن يتزوج لم يكن أصدقاؤه يظفرون به كثيراً ، فقد كان فتى طليقاً مولعاً بالمغامرات الناعمة . . والفراشات الملونة الجميلة كانت تتساقط بوفرة فى لهب الشهرة . . فلم يكن لديه وقت يصرفه مع الرجال . . أما بعد أن تزوج فقد كف عن كل هذا ، وصار يحب الهروب من البيت ، ليتطفل على مجالسنا ويشاركنا سمرنا الخشن الذى لا تمر فيه أبداً همسات النساء الرقيقة ، وسألته ، وأنا أنفث دخان سيجارتى : « إنى فى عجب من أمرك ، فإن تاريخك القديم ما كان يبشر أبداً بأنك ستغدو زوجاً نظيفاً ! » .

فقال وهو ينقر غليونه على كعب حذائه لتتساقط منه بقايا الرماد : « إن الزواج تأديب وتهذيب وإصلاح.. وقد غدوت حقًّا زوجاً أميناً . . وما حاولت قط أن أخدع زوجتى إلا مرة واحدة ، ثم تبت وأنبت . . » .

وملأ غليونه بالتبغ ، وأشعله ، ثم أرسل فى الفضاء تلك النظرة الحالمة التى كانت تنبئنى دائماً أنه شاعر . . وحلا له أن يواصل حديثه فقال : «نعم . . إنها مرة واحدة ، وكنا فى شهر العسل ، وخرجت وحدى ذات ليلة تاركاً زوجتى فى سريرها تقاسى آلام الصداع . . ولم أكن متألماً لها ، بل أحسست فى قرارة نفسى بشىء من التشفى ، فإنها شغلت كل وقتى ، طيلة ثلاثة أسابيع ، حتى لم أخط بيتاً واحداً . وقد تنفست الصعداء عندما اعتذرت عن عدم الخروج معى . . وأحسست وأنا أسير وحدى فى الطريق ، وذراعها ليست فى ذراعى ، أننى عصفور كان موثق الجناح وأفلت من القيد .

ورأيت الأنوار تتلألأ فى حديقة الأزبكية ، وتذكرت أن مهرجان الجمعية الخيرية يقام الليلة ، فابتعت تذكرة . . وكان الجو ساحراً والمصابيح الكهربائية الملونة تتدلى من أغصان الشجر ، وكأنها ثمر غريب من ثمار الجنة . . والأزهار تماوج فى النور الأخضر والأحمر وكأنها تنبت تحت خطوات الحسان . ولمحات عيونهن ، والبسمات البيضاء المتناثرة من شفاههن تذكر بالحب وتغرى بالطيش . . فأخذت أمشى فى الحديقة ، وأحدق إلى الغاديات والرائحات ، وأنا أحس أن قلبى قد بدأ يعربد فى صدرى !

ولفتتنى فتاة تشتمل بملاءة سوداء من ملاءات بنات البلد ، تتبختر فارهة ممشوقة وكأنها عود من الخيزران ، ومشيت فى أثرها ، ثم تقدمتها خطوات لأرى محياها ، فطالعنى جبينها الوضاح المضىء . وكان النصف

الأسفل من وجهها يختفى تحت البرقع ، فلم يكن بصر الناظر إليها يتوزع ، بل كان يستقر على عينيها .. وقد ندمت لأننى تطلعت إلى هاتين العينين ، اللتين تناديان وتستدرجان إلى هوة عميقة من الغواية .

وتأخرت وراءها ولكن خطواتى ظلت موثقة بخطواتها .. وبعد جولة صغيرة التفتت إلىّ وابتسمت ، كأنما تدلنى أنها تدرك أنى أتبعها .. وغادرت الحديقة بعد أن رنت إلىّ بنظرة تنم عن الدعوة ، فخرجت أيضاً ، ولم أكن قد كففت طول الوقت عن أن أزجر نفسى .. فإننى ما نسيت لحظة أنى زوج ، وأننى تركت عروسى فى البيت وحيدة متعبة .. فمضيت أحتال على ضميرى ، وأزعم له أن الشاعر ، لا أنا ، هو الذى يرتكب هذه الحماقة ، ويسعى وراء قصيدة ستمليها هاتان العينان النجلاوان .

ولم أحجم ، ولا وجدت كبير مشقة فى أن أصل بينى وبينها حبل الحديث .. وعندما اقترحت عليها أن نركب عربة تجوس بنا خلال الجزيرة ضحكت فى تمنع هو الرغبة بعينها ، فتأكدت أنها سهلة القياد .. لكن ذلك لم ينقص من سرورى .. وركبت إلى جوارها ، وإذا هى تلزم ركن العربة لتباعد بينى وبينها ، فعجبت من هذا التناقض بين الصدّ والإقبال .

ولفتنى أن صدرها كان يعلو ويهبط وكأنها تلهث ، وأن صوتها كان مضطرباً .. وحاولت أن تضحك فبدت ضحكتها عصبية تظهر فيها نبرات الانزعاج .. وعندما تناولت يدها أحسست قبل أن تجفل

وتسحبها أن أصابعها باردة ، وأن نوعاً من القشعريرة يسكن أطرافها ، فأدركت أنها امرأة غير عادية . واستولى على ذلك الصمت الذى يعبر عن الاستياء .

وكأنها لاحظت أن تحفظها ضايقنى . . فأقبلت على ، وحاولت أن تبدو ظريفة مرحة . . لكنها مع ذلك كانت محتشمة احتشاماً خيل إلى أنه أساء إلى سائق المركبة الذى ألف أن يتصاعد أجره وفاقاً لما يحدث وراء ظهره .

وكان لصديقى علام شقة هادئة فى قلب المدينة يتخذها وكراً لفضائحه . . ولم يكن بحكم عمله كمفتش فى إحدى الوزارات يبقى فى القاهرة أكثر من أسبوع فى الشهر ، فكان يترك مفتاح الشقة مع البواب لينتفع بها خلصاؤه .. وقد شعرت وأنا أقود «نعمات» إلى هناك أننى رجل ردئ ، فإن قلبك لا يطاوعك أن تخون عروسك فى شهر العسل إلا إن كنت ممعناً فى الضعة . . لكن شيطانى ظل يوسوس لى أن كل شىء مباح للشاعر ، وأننى أود من صميم الفؤاد أن أحصل على تلك السيدة الغامضة .

وعندما صرنا وحدنا فى ذلك المأوى الفاخر الأنيق نزعت البرقع الذى كان يخفى نصف وجهها ، فتمت أمام ناظرى آية الحسن التى شهدت بها عيناها ، فقد كان لها فم دقيق ، كالزنبقة الحمراء ، وذقن لطيف يلهم قبلات صغيرة عابثة . ثم جذبت عن كتفيها الملاءة السوداء التى كانت تشتمل بها ، فأطاعت بعد قليل من التردد ، وبدت

فى ثوب رائع ، فعجبت أن تختار فتاة من بنات البلد ثيابها بهذا الذوق الرفيع . . وأن تكون فى جلستها وحديثها فاتنة ومصقولة وحاصلة على كل هذه الرقة واللباقة !

وكم كان غريباً — وهى الشاردة التى تصاحب الكثيرين — أن تكون متحفظة تتقبل مداعباتى والنفور فى عينيها والخوف فى حركاتها ، فقدرت أنها حديثة عهد بالانحدار والإسفاف ، وتذكرت قصص الشقيات البائسات اللاتى يسفكن أعراضهن ليحصلن على الخبز ، لكن قضى على هذا الظن الثياب الفاخرة التى كانت ترتديها ، والعقد الثمين الذى كان يطوق جيدها ، فظلت أمامى لغزاً عسيراً ، وبخاصة عندما طلبت أن تشرب خمراً ، وكأنها تريد أن تمعن فى الابتذال ، وأن تثبت لى أنها وثيقة الصلة بمجالس الشراب . . وكان بيت ذلك الصاحب مزوداً بمقصف صغير ، فحصلت على بغيتها . ومع ذلك اغرورقت عيناها من أول جرعة . وزودتها النشوة بشىء من الشجاعة ، وفكت عقداً من لسانها ، وجعلتها أكثر تسامحاً ، فلم تجزع عندما جلست إلى جوارها . لكنها ظلت تذودنى عن شفتيها ، بلا رفق ، مؤنبة : « لا تكن عجولا . فإن الليل أمامنا طويل» . وعجبت من أمر تلك الساذجة الماكرة . . وبعد أن كنت أعتقد أنها غريرة عديمة التجارب بدأت أرجح أنها مدربة على فنون الإغراء ، وأن حياءها قناع زائف ، لكننى آثرت الصبر ، وتوقعت من الخمر أن تصرعها وتبدد ما تتكلف من مقاومة .

وعندما شربت عدة كؤوس ، كانت هى ماتزال ترشف من كأسها



الأولى ، وبينما أصبحت أرى الدنيا حمراء ظلت هي محتفظة بهدوئها ، ومضت تصدني وتكرر القول : « لا تكن عجولا فإن الليل طويل ! . »

وفجأة قالت لي إنها تشتهي شيئاً من الفاكهة ، فذكرت أنني رأيت دكاناً في الشارع القريب ، واستأذنتها لحظات ، وقد استخفني الحماس ، فشكرتني برقة ، وانطلقت وأنا أجد أن عينيها تستطيعان أن ترسلاني إلى آخر الدنيا .. وعدت بعد عشر دقائق مسرعاً كالزوبعة ، مثقل الذراعين بقراطيس تحوى شهي الثمار ...

وإذا نعمات ليست في البيت ! .

لقد ذهبت .

وكان ذلك عجيباً . فإنها جاءت طائعة . وما تعقبتها إلا بعد أن رأيت الدعوة واضحة في عينيها ، فأوجست أن تكون سارقة تمارس السطو بطرائق مبتكرة ، لكن ساعتي الذهبية التي نسيتها فوق الخوان قبل أن أخرج كانت في مكانها . ولم يكن يبدو أنها مست شيئاً .

وعدت إلى داري مخذولا بعد منتصف الليل ، لأرى زوجتي ماتزال مستيقظة تئن من الصداع . وزعمت لها أن دواعي العمل هي التي أخرتني إلى تلك الساعة ، فأنى لها أن تعرف أنني سعيت إلى الإثم ، وأنني لولا شريكتي الشاردة لعدت ملوثاً خائناً للعهد ؟ !

ومنذ تلك الليلة خطرت نعمات في أحلام يقظتي مرات عديدة .

وما نسيت أبداً عينيها السوداوين تلمعان فوق البرقع ، وتذكراني

بالفجر عندما يلمع فى ثنايا الليل . وكم تمنيت أن أعثر بها فأقتص لذلك الحلم الشهى ، وأسحق شفتيها بقبلاتى .

ثم زجرت خيالاتى. وقمعت تلك الرغبة الجامحة المشبوبة التى كانت تغرينى بالتفكير فيها . وبعد عدّة أشهر استرحت إلى اليأس وساد السلام ذاكرتى !

* * *

وذات ليلة ، فى حفلة ساهرة ، لفتنى وجه امرأة كانت جالسة فى ثياب السهرة ترقب الرقص . و بعد لحظات تبينت أنها « نعمات » . إذن فهى سيدة ممتازة ، وقد كانت تتخفى فى الملاءة السوداء . .

دنوت منها ، وسألتها باسماً : « إننا التقينا من قبل ، فهل تسمحين بهذه الرقصة ، يا سيدتى ؟ . . » فحدقت بعينيها إلى وجهى ولم تلبث أن عرفتنى ، وامتقع وجهها ، لكنها نهضت وتبعتنى .

وانحنيت على أذنها هامساً ، وأنا أراقصها : « ها قد عثرت عليك . . ولن تفلتى منى . . هذه المرة » .

فغمغمت بصوت خافت وقد ازدادت شحوباً : « حسناً . . » ثم أضافت وعلى فمها ابتسامة حزينة : « مازلت عجولا . . مع أن الليل طويل . . قدنى أيها الصديق إلى الحديقة . فإننى أحس أننى أختنق هنا » .

وغادرنا بهو الرقص ، وهبطنا إلى الحديقة الشاسعة ، ولم تكن مضاءة فتسلل إليها قبلنا كل الذين يحبون الظلام .

وجلست إلى جوارى على مقعد تخفيه خميلة عن العيون . ولم أدر أمن البرد كانت ترتعش أم من الخوف وهى تهمس : « عندما رأيتك خيل إلى أنى ألتقى بشبح أفظع حماقة ارتكبتها فى حياتى » .

فظننتها تعتذر عن فرارها فى تلك الليلة وأجبت : « إن كل شىء يغتفر لحسنك ». فقالت كأنما لتوضح قصدها: « إننى أود يا سيدى أن أقص عليك قصة صغيرة لتقلع عن خطتك ، إن كنت قد عقدت العزم على أن تطاردنى . . فإننى كنت قبل أن أراك فى تلك الليلة المشئومة امرأة شريفة ، وقد ظللت أيضاً كذلك حتى اليوم ! » .

ثم باحت لى أنها كانت ، فى تلك الليلة ، تنتظر زوجها ليذهبا إلى المسرح ، لكنه جاء من الخارج متعجلا وبدّل ثيابه ، وزعم لها أن عملا عاجلا يستلزم أن يسافر إلى الإسكندرية فى الحال ، وأنه سيبيت هناك . فلم تعترض . .وبعد أن مضى ذهبت تعلق البذلة التى خلعها فى خزانة الثياب . . ووضعت يدها فى أحد الجيوب لتبحث عن علبة ثقاب ، فعثرت برسالة معطرة نسيها الزوج العجول ، وتبينت أن الموعد الذى ينتظره هو موعد غرام ، فثارت ثائرتها ، وأقسمت لتكيلن له بالكيل نفسه ، وخرجت فى الليلة نفسها متخفية فى ملاءة خادمتها ! . .

. وعندما لقيتنى كانت نفسها ماتزال مهتاجة ، وكانت ماتزال تبحث عن الرجل الذى سيرسله القدر ليعاونها على التنكيل بشرف الرجل الغادر .

لكنها بعد أن صحبتنى وجدت أن الأمر ليس سهلاً كما ظنت

وجبنت . .وكرهت وجهي المحتقن بالرغبة، وخافت مني بعد أن أصبحت عبداً دميماً للشهوة. ففرت وقد أيقنت أن كرامتها أعز عليها من الانتقام .

وأضافت نعمات : « فهل تصر يا سيدي على أن تطاردني الليلة أيضاً . . إنك تضيع وقتك عبثاً . . »

قلت لها ، بلهجة قاطعة ، وقد تملكني الخجل : « أبداً . . أبداً يا سيدتي » .

ذلك أنني تذكرت زوجتي . . وقفّ شعر رأسي وأنا أتصور أنها تعرف خيانتي وتفكر في مثل هذا الانتقام الرهيب .

* * *

ومنذ ذلك اليوم صممت ألا أخدع زوجتي أبداً .

بل إنني أقدم لها دائماً حساباً دقيقاً عن ساعاتي في الخارج . . وأين كنت . . وإلى أين أنا ذاهب .

وإنها لتعجب ، وتحتج قائلة : « إنني أثق بك ، وما طالبتك قط بمثل هذا . » .

لكنني أحب دائماً أن أثبت براءتي مقدماً ، فإن دمي يجمد في عروقي كلما تصورت أن من المحتمل أن أتعرض للخطر الذي تعرض له زوج نعمات !

نقطة ضعف



عيد الأم يقترب .. والمدينة منتعشة . المتاجر مزدحمة بالمشترين . . والأطفال يملأون الطريق .. هذه المرة هم الذين يختارون لأمهاتهم الهدايا . . وهم الذين يقودون الموقف .. وفى أيديهم الزمام . وتمنى « إبراهيم » وهو يتسكع فى الطريق لو كانت له أم .

ولم يكن إبراهيم طفلا .. ولكنه كان يطيل النظر كلما لمح نفسه فى مرايا الحوانيت أو زجاج واجهاتها .. يطيل النظر ويدقق ، باحثاً عن « الطفل » فى وجهه .

فى وجه ابن الخمسين ..

رأى إبراهيم فى حاجبيه ما يخالطهما من شعر أبيض وتقطيب .. ورمق فى عينيه نظرة عابسة .. ولحظ تقاطيع قاسية جفت منها الابتسام وقال لنفسه : كانت هنا يوماً مكان كل هذا « ملامح طفل » !

كان طفلا .. جبينه مضىء ، وبشرته ناعمة ، وقلبه قادر على الفرح ، وأساريره يأوى إليها الضحك . . ويمسك يد أمه ، كهؤلاء ، إذا مشى إلى جوارها فى الطريق . .ويملأ عينيه من وجهها قائماً وقاعداً . . ويعصاها ليذوق حلاوة صفحها . . وتضربه وهى ترتعش حباً !

كان طفلا وكانت له أم ، ولكن ذلك منذ زمن بعيد .

لابد أنه كان صغيراً جداً عندما افترقا . . إنه لا يدرى الآن كلما

أخذه الماضى إليه، أبقايا ذكريات تلك التى تساوره، أم تهاويل أحلام ؟!

إنه يحسب أن القطار دهمها ذات مساء من أمسيات طفولته ، وهى تسحب الجاموسة عبر الخط الحديدى الذى يخترق القرية . . ولم تعد إلى البيت . . ولكن الجاموسة عادت .

وفى تلك الليلة لم تنم أمه معه . بقيت حيث سقطت فوق القضبان إلى أن تأذن الحكومة برفع جثتها، ومن حولها حلقة من النساء ينتحبن.. وكأنه يذكر أنه حاول أن يصل إلى أمه ، ويرى كيف أكلها « الوابور » والدموع فى عينيه يزاحمها الفضول . ولكن النساء المعولات منعنه . . ونام فى حجر إحداهن . . واستيقظ فى الضحى ليجد نفسه فى فراش غريب . . وليس إلى جواره أحد . . وجرى إلى الخط الحديدى حيث صرعت أمه . . ولكنه لم يجدها هناك ، وقال له طفل وهو يشير إلى رجال فى طريق المقبرة : « إنهم ذهبوا يدفنون أمك . . » ومع أنه تعود أن يجرى مع لداته وراء كل جنازة ليتفرج فإنه فى هذه المرة جبن عن اللحاق بالموكب . . وثقلت خطاه . . وعاب على أمه أنها ترضى النوم على هذه الخشبة المحمولة على أكتاف الرجال ، وكره منها أنها ترضى أن تدفن من غير أن تقاوم ! . .

ومع أن إبراهيم لم يكن ينفر من اللعب مع رفاقه فى دروب المقبرة . . لم يجرؤ على الدنو منها منذ سكنتها أمه . . وعلى شدة شوقه إليها ولهفته إلى رؤية وجهها خاف أن تظهر له هناك ، خوفاً حزيناً ، ودخل

إلى نفسه رويداً رويداً معنى الموت .

والخوف الذى كان يقصيه عن المقبرة كان يدنيه من الخط الحديدى.. فكان يتسلق شجرة توت قريبة ، ويرقب منها مقدم القطار الذى دهم أمه عند الغروب . . وكان يفعل ذلك أول الأمر فى رهبة. . وكان قلبه ينخلع والأرض تهتز تحت ضجة العجلات . . وكان يسمع فى ولولة الصفارة جزع أمه من الموت المباغت . .ثم تحولت الرهبة مع الأيام إلى غضب . غضب صلب لا يلين . . وكان إبراهيم يجد فى يده دائماً ، حجراً يرمى به سائق القطار وهو قابع بين الأغصان .

* * *

أبقايا الذكريات أم تهاويل الأحلام هى التى تضيف إلى تاريخ طفولته أن أباه تشاءم من الجاموسة التى افتدتها أمه بحياتها وباعها . . باعها وتزوج بثمنها !

والنساء اللاتى كن يتحلقن حول جثة أمه على شريط القطار وهن باكيات ، رآهن حول العروس فى ليلة الزفاف ، طروبات يطلقن الزغاريد ! وهو نفسه بعد أن أكل من « النقل » الذى جاءت به معها لم يحس لها ضغينة . ولولا أنه صار ينام وحده وأخذت هى مكانه إلى جانب أبيه ، لما ساءه منها شيء .. وكلما كان أبوه خارج البيت كانت تلاعبه وتخطب وده بالهدايا ، وتتوسل إليه أن يبقى كلما أحب أن يلحق برفاقه فى ساحة الجامع . .وعندما توثقت صداقتهما باحت له أنها تخاف إن تركها وحدها أن يظهر لها عفريت أمه ، ويحاسبها على زواجها من أبيه !

باحت بذلك وهى ترتجف ، فقد كانت بدورها طفلة فى الخامسة عشرة . .

واقشعر الصبي وهى تمسك يديه بيدين باردتين ، وتسر إليه بما تهامس به القرية من أن أمه تظهر على الخط الحديدى عندما يكون القمر فى تمامه ، وتمشى بين القضبان كالنائمة ، فإذا حسبها السائق من الإنس ونزل لينقذها ، استدارت له وحدجته بعينين يقدح منهما الشرر ، ونفخت فى وجهه نفساً من نار جهنم قبل أن تتلاشى وتذوب فى فضة القمر .

وكان إبراهيم يستخلص من أحاديث زوج أبيه أن أمه على حق فى بغضها لسائقى القطارات . فقد قتلها أحدهم . . وإذا كانت تظهر لهم بدافع من الكره فلا شك أنها ستزوره بدافع من الحب . .ومع أنه كان فى شوق إليها لم يكن يجد أنه يستطيع أن ينظر إلى عينيها الحمراوين المشقوقتين إلى أعلى . . ومنذ توقع قدومها خاف النوم وحده فى الظلام . ومزق الخوف من الليل قلبه الصغير . .

وقرر أن يتسلل إلى القاعة التى ينام فيها أبوه مع عروسه ليقبع تحت السرير ، لكى يفزع إليه إذا جاء طيف العدوة الحبيبة . وقبع هناك ، وقد تحولت جوارحه كلها إلى أذن تصغى لنباح الكلاب البعيد ، وحركة الماشية فى الحظيرة ، ورفيف أجنحة الطير على السطح . يصغى لكل هذا ، ويربطه بمقدم أمه ، ويخيل إليه أنه من علامات ظهورها . ولعله كان بين النعاس واليقظة عندما صرخ صرخة عظيمة تبين بعدها أن

الذى مشى عليه فأر كبير . وأيقظت الصرخة أباه ، ولم توقظ الزوجة الصغيرة ، فإن نومها كان أثقل من خوفها من ضرتها . وسحب الرجل الطفل من مخبئه وقد ظن به الظنون ، وحاول إبراهيم ذكر الحقيقة ، ولكنه لم يجد لسانه .

وأرسلته دفعة قوية إلى خارج القاعة ، دفعة مشفوعة بوعيد أن يجلده فى الصباح حتى يسيل دمه .

ولم يكن الصباح بعيداً . .ونظر إبراهيم فى يأس إلى خيوط الفجر . . والنور الذى كان ينقذه من ويلات الليل صار نذير عذابه وهو موثق فى الفلقة .

وعندما استيقظ الرجل الحريص على ألا يقتحم أحد مخدعه ويفصح خلوته ، كان إبراهيم قد صار عند الخط الحديدى .. وكان يعرف أن قطار الصباح قادم بعد قليل . . وتمنى لو يدهمه كما دهم أمه.، لكى يتحول إلى شبح يخيف بدلا من أن يخاف . . يخيف على الأخص أباه الذى يضربه . . ولكن اهتزاز الأرض تحت العجلات دفعه بعيداً . . ولم يجد الموت سهلا كما كان يظن ، واعتصم منه بشجرة التوت يجلس بين أغصانها العالية وقد انسابت دموعه .

ولم تشغله الدموع عن قطف ثمرات التوت . وعندما شبع اكتشف أنه يستطيع أن يعيش بعيداً عن أبيه، وقرر الهرب . .

* * *

ومشى حذاء الخط الحديدى . . ووجد دائماً فى طريقه ما يأكله . .

استضافته غيطان الفول الأخضر . .وسقطت عليه حبات الجميز وهو نائم فى ظلها . . وقضم كيزان الذرة نيئة. . وأحب طعم الحلبة ورائحتها أكثر من قبل . . وذات ليلة وجد نفسه فى مدينة كبيرة اسمها مصر . . أم الدنيا .

ورأى أطفالا نائمين على رصيف ففعل مثلهم . . نام بعمق وقد ذهب مصباح الشارع بالخوف الذى كان فى قلبه ، ولكنه عندما استيقظ فى الصباح لم يجد جلبابه الجديد على جسده . . .

وسرعان ما تبين أن المدينة ماكرة .. وأن الحقول كانت أحنى عليه.. فقد كانت تخيفه فى الليل ، ولكنها كانت تملأ بطنه . . أما هنا . . فى هذا الزحام الكبير . . فليس الشبع سهلا . . وعليه أن يفعل مثل الصبية الآخرين الضائعين مثله . . يمد يده ويستجدى باكياً من الجوع أو يخطف شيئاً من بائع جائل .. أو يبحث فى صندوق القمامة عن لقمة.

* * *

وذات صباح وجد جلبابه على جسد غلام . . ودخل مع السارق فى معركة . . معركة قصيرة . . إن هى إلا دقيقة ثم صار الجلباب فى يده . .

وكان هناك رجل واقف يراقب الأمر .. وأعجبه من إبراهيم أنه عالج الموقف فى سرعة وحزم . . وتقرب إليه . . وأخذه إلى المقهى القريب . . وطلب له كوباً من الشاى الساخن الشهى ممزوجاً بالحليب .

وبعد « مباسطة » فى الكلام عرض عليه أن يعلمه النشل . .

لكن لم يثبت في ذلك نجاحا . . ومل الحرفة . . وهرب من أستاذه . .
أبوه كان يجلده . . لكن هذا كان يكويه . . والكى . . كان أفظع .

* * *

وتنهد إبراهيم وهو يرى وجه ابن الخمسين فى مرايا الحوانيت وعيد الأم يقترب . .

أبقايا ذكريات هى ؟ . . أم تهاويل أحلام ؟ ! . .

إنه سرح فى شوارع القاهرة وعلى صدره صندوق فيه إبر ودبابيس وأمشاط . . وتسلق الترام .. واشتهر عند الكمسارية والسائقين بأنه مشاغب.

ولعله كان فى الخامسة عشرة عندما انتقل بنشاطه إلى القطارات وعلى ذراعه جردل « الكازوزة » . . والمناكفة التى كانت صغيرة مع كمسارية الترام كبرت .. ومطاردة حرس القطارات له صارت مرتبطة بكسبه لقوته.. الجرى على سطح القطار والوثوب منه وهو مسرع صار جزءاً لا يتجزأ من سعيه إلى رزقه .

ولكن هل هو السعى إلى الرزق فحسب ؟ !

أكثر من مرة اضطر إلى الاختباء تحت القطار . . تعلق بالعمود الذى يمسك العجلات . . وكان ينظر إلى دورانها ، ويصغى لدويها ويحدق إلى الخطر المحدق به غير مكترث .. كان يملأ نفسه شيء واحد.. أن أمه ماتت على هذه القضبان . . وكان يخال كأنه يرى موتها ، ويألم له ، ويعوض الحسرة عليها التى فاتته فى جهالة طفولته . .

* * *

الآن يدرك أنه كان يكابد، وهو لا يدرى، لوعة خرساء على أمه، ومع أن ضجة القطار كانت تملؤه كآبة لم يستطع قط أن يفارقها . وأحب دائماً أن تزوده بالسخط الذى كان يحتاج إليه لكى يحصب قطار القرية بالحصى وهو فى أعلى شجرة التوت ، ذلك العدوان الذى ارتقى إلى قذف السائق بزجاجات الكازوزة الفارغة . . ثم الهرب .

الهرب كانت له فى نفسه لذة تعادل لذة الشغب . . ولم يكن يدرى ماذا يفعل بحياته إذا لم تكن هناك قطارات يفلت منها ، ويحاور عمالها ، ويضرب سائقيها . . .

وبعد أعوام ملّ هذا . . كما ملّ النشل من قبل . . أحس كأن اللعبة لم تعد تلائم سنه . . وكأنه فى حاجة إلى هروب أكبر .

هل هذا هو الذى دفعه إلى تغيير حرفته . . جاء عام وإذا هو وقاد فى باخرة تجوب البحار . . ورأى الدنيا . . وعرف نساء من شعوب مختلفة . . ووجد على لسانه كلمات أكثر من لغة . . ولقنته الموانئ دروساً كثيرة فى الخير والشر . . وباع واشترى أشياء ممنوعة . . وبعد أن صار فى يده مال كثير هرب من البحر إلى اليابسة . . وعاد إلى القاهرة من جديد .

* * *

دخلها دخول الوارث المبذر . وجلس يلعب القمار فى حانة . . حانة حقيرة . . فبرغم أنه عرف النعيم كان يحن إلى النقطة التى بدأ منها .

وفى الحانة جلس يلعب القمار مع ناس لا يعرفهم . . وبعد أن انغمسوا فى اللعب والشراب جاء رجل ، صديق للآخرين ، واشترك فى اللعب . .

وكانت ثياب الرجل ملوثة بالفحم والزيت . . وعندما علم أنه سائق قطار انقبض صدره ، وامتلأت نفسه بالكآبة التى كانت تعاجله كلما سمع صليل العجلات على القضبان . .

وقبل قدوم السائق كان يلعب باستقامة ، ولكنه بدأ ينحرف ، ولم يستطع أن يقمع ميله إلى أن يغشه . .

ولكن السائق كان يقظاً . وقال له : يا لص . .

وقامت معركة .

وتذكر إبراهيم الأيام التى كان يضرب فيها السائقين بزجاجات الكازوزة الفارغة . . ويهرب .

وتقلصت يده على زجاجة الخمر الكبيرة . . وضرب بها المائدة . . وعندما صارت بقيتها فى يده ، أشبه بالخنجر ، طعن بها السائق فى رقبته مرات .

وعندما رأى الرجل عند قدميه جثة يغطيها الدم . . رأى فى اللحظة نفسها أن الشىء الذى كان يهرب منه ويجد فى الهرب كان مختفياً داخل نفسه . كان . . الانتقام

* * *

وحاول أن يشرح ذلك للقاضى ولكنه عجز . . ولم يجد الكلمات

ولم يجد لسانه . .

ودخل السجن . .

وخرج بعد سنين كثيرة . .

خرج منذ أيام .. وفى يده مال قليل . يضعه السجن فى يد عميله لكى يبدأ حياته من جديد .

* * *

وفى ذلك الصباح كان إبراهيم يمشى فى شوارع القاهرة الكبيرة وهو يفكر كيف يبدأ . .

ومن أجل ذلك كان ينظر فى واجهات الحوانيت .

ولكن الواجهات كانت تعرض هدايا عيد الأم .

واختلس النظر إلى المرايا . . وبحث عن الطفل فى ملامحه التى جف منها الابتسام . .

تذكر أنه كان يوماً طفلا .

وتذكر أشياء كثيرة . . واختلطت فى نفسه بقايا الذكريات بتهاويل الأحلام .

شجرة التوت القائمة إلى جوار الخط الحديدى فى أى بلد ؟! . . أين هى ؟ ! إنه لا يدرى . . .

لو عرف لذهب إلى هناك وحام حول المقبرة وهتف « يا أمى . . . يا أمى أنا ولد صغير »

* * *

ودخل متجراً كبيراً فى شارع ٢٦ يوليو . .

دخل ليرى الأمهات وهن يتبعن أولادهن مطيعات باسمات .

وتقدمت منه بائعة جميلة وسألته برقة : « هل تريد شيئاً يا سيدى ؟ »

وأجابها وقد أخذته رقتها على غرة : « أريد شيئاً لأمى . . ولكنى حائر فى الاختيار » .

وقالت له بصوت ودود : « ما رأيك فى هذا الشال من القطيفة ؟ ».

وكانت سنو السجن قد دربته على الطاعة . وهذه المرة لم يكن الصوت الودود يأمره ، ولكنه أطاع .

وخرج والشال فى يده .

ومع أن ما دفعه قصم المبلغ الذى سيبدأ به حياته من جديد ، فإنه كان سعيداً .

أسعده أن يراه الناس والهدية تحت ذراعه .

وحاول أن يتخيل وجه أمه والشال محيط به . ولكن الخيال لم يسعفه .

ثم خفق قلبه فجأة .

إنه يقطن حجرة على سطح بيت .

وفى شقة صغيرة فى الطابق الرابع تقطن سيدة عجوز .. لقد لاحظ من قبل أنها وحيدة .

ماذا لو أهداها الشال .. ماذا لو قال لها : « لعلك فى حاجة إلى ابن كما أنا فى حاجة إلى أم » !

* * *

وعندما لمحها فى أول الشارع الذى يقطنه أيقن أن الحظ فى صفه ، وقرر أن يلحق بها .

ولمحته هى أيضاً . . وضاعفت من سرعتها ، لكى تتجنبه ، فإن شيخ القسم قد همس فى أذنها بالأمس : « صاحبك الذى يسكن على السطح خارج من اللميان . . وأنت تعيشين وحدك . . كونى على حذر » .

وضاقت المسافة بينهما . . وحاول أن يكلمها . . ولكنها لم تجبه .

وقال لنفسه : « العجوز المسكينة لابد أنها صماء ! » .

وأبطأ قليلا ، ثم عاوده الأمل فى أن تسمعه على السلم .

ولكنه فوجئ بها تصعد الدرجات وثباً وكأنها شابة صغيرة .

وحاول أن يفعل مثلها ، وأجهده ذلك فإن وزنه كان ثقيلا .

ووصل إليها وهى تفتح الباب . ومد يده بالشال وهى تغلق فى وجهه الباب والذعر فى عينيها يطرده .

وصرخت .

ولما صرخت فهم .

وحاول أن يتكلم . . أن يوضح . .

ولكنه لم يجد لسانه . . وهربت منه الكلمات .

وأسرع إلى غرفته على السطح .

وبسط الشال . . ولمسه بأصابعه . وحاول من جديد أن يذكر وجه أمه ، ولكنه عجز . .

وقهره العجز ، وأخفى وجهه فى القطيفة السوداء . . وبكى .

بكى وقد نال منه اليقين أن أمه . . وأمه فقط .. هى التى كانت تستطيع أن تفتح له الباب . .وهو قاتل .

* * *

التراب الأحمر



الناس يذهبون إلى أسوان فلم لا يذهب ؟ . .

إن عنده وفرة فى الوقت . . ووفرة من المال . .

ووجد نفسه فى الطائرة ، وعينه مثبتة على اللوحة المضيئة : « التدخين ممنوع . اربط الحزام » .

وأطفأ سيجارته . ولكنه لم يربط الحزام . نفذ ما يمس الناس . . وتراخى فيما يمسه ، فقد تعود منذ زمن أن يعامل نفسه بعدم اكتراث ، وأن تستوى عنده أمور كثيرة .

ولكن عين المضيفة التقطت مخالفته ، وامتثل لابتسامتها والطائرة تتسلق السماء . .

لقد طار من قبل مرات كثيرة . . وفى لحظات الطيران الأولى كان ينتابه شعور مركز بأنه يفارق الدنيا . وكان يحس من ذلك رهبة وإشفاقاً . . ولكن هذا الشعور فارقه الآن . . واستبدل به الاستخفاف . ولم يكن استخفافه شجاعة . . ولكنه كان زهداً فى الهروب من القدر !

* * *

وانطفأت لافتة « التدخين ممنوع » ، وبدأ عادل يدخن من جديد . .

وأخذ ينظر عبر النافذة إلى الأرض الهاربة .. ثم مل هذا وأخذ ينظر

داخل نفسه . . حياته كهذه السيجارة لا طعم لها . . إنه يستهلك سجائره من غير أن يتذوقها . . وهكذا يفعل بأيامه ولياليه . أحياناً تقع عينه على « الطقطوقة» فيخال أن الذى فيها ليس أعقاب السجائر ، ولكنها أعقاب السنين التى ذهبت سدى .

ولم يكن عادل عاطلا حتى ينتابه هذا الشعور . أحلام أقرانه كانت عنده حقائق، حصل عليها وماتزال طوع بنانه . فقد تخرج فى كلية الهندسة بتفوق . .وأتاح له تفوقه فرصة العمل فى شركة كبيرة فى شارع سليمان باشا . . وكان عمله أن يدرس العطاءات ، وبعد سنين من المران والخبرة صار مشرفاً على أعمال زملائه . . ينفق فى ذلك ساعة ، ويستجم ساعة بالوقوف فى الشرفة ، يرقب من أعلى السيارات وهى تمرح فى الطريق . . والفتيات فى أحدث أزيائهن، تسيل أنوار النيون على ثيابهن الزاهية ، وتخضب شعورهن المصبوغة بألوان لم يتفتق عنها ذهن أبرع حلاق . ويشفق عليه التليفون أن يمل الوقوف فى الشرفة فيستدعيه رنينه . . وتنبثق فى أذنه أصوات ناعمة ، وضحكات هانئة تملأ خياله بعيون خضراء وعسلية . . بقصص قصيرة وطويلة . . وتذكره بمسرات انقضت . ومسرات فى الطريق . ودموع حلوة . وضحكات مرة .

وبعض الشباب يصابون فى الحب بخيبة أمل. . لكن عادل لم تلحقه من الحب إصابات ولا كدمات . . فقد اخترع معادلة رياضية أثبت

فيها لنفسه أن أكاذيبهن أحلى من صدقهن . . ولم يكن بمقتضى هذه المعادلة يحمد لأى فتاة أن تبقى على ولأنها له .

وكان هذا يزعج أمه التى كانت تحس أن وحيدها لن يتزوج إذا كبرت فى رأسه آراؤه الطائشة .

* * *

وابتسم عادل وهو يتذكر قلقها عليه ، ابتسامة كبيرة ، حجبها عن بقية الركاب ظهر المقعد الذى يتقدمه . . كانت صورة أمه ، فى خاطره ، هى الشىء الوحيد الذى يحمله على الابتسام الكبير .

وقد ألف أن يحارب خوفها عليه بالابتسام . وحتى بعد أن حجبها الموت عنه إلى الأبد صار الابتسام خصلته معها كلما التقى بها فى دروب الذاكرة . كأنما ليثبت لها أن فراقها لم ينل منه . . اطمئنى يا أماه لم أعد صبياً هشاً . . ومخاوفك على لا محل لها .

* * *

محنة واحدة عجز عن الابتسام لها ، واحتاج إلى صدر أمه ليبكى عليه .

فات على مصر وقت كان فيه الإنجليز يتعلقون بأهداب الخيال ، ويأملون فى البقاء . . ولكن الفدائيين لم يدعوهم يهنأون حتى بالحلم ، وكانوا يستيقظون مذعورين على دوى الرصاص وانفجار القنابل . . والحلم الجميل انقلب إلى كابوس لا صحوة منه إلا صحوة الموت تحت أنقاض المعسكرات ، وقد نقع فراشهم فى الدم .

وذات ليلة جاء دور عادل لكى يذهب إلى السويس مع مجموعة من الرفاق .

وتحت ستار الظلام تسللوا حسب خطتهم الموضوعة .

ولكن موقف عادل وهو يقترب من العدو اختلف عن موقفه أيام التدريب فى صحراء القاهرة .

إن الشجاعة التى رافقته هناك ، والخطر خيال ، أعوزته هنا والخطر محدق به .

وبدلا من أن يتقدم إلى الأمام تراجع إلى الوراء .

وطلع عليه الفجر ليكتشف أنه هرب وتجنب المعركة .

ورفع رأسه إلى حافة المصرف الجاف الذى نام فيه ، والفجر يرفل فى ردائه الرمادى . وسلك طريق العودة كاللص المحاذر أن تراه عين .

ثم اعترضت طريقه جثة وهو فى بعض الطريق . تبين من الثياب أنها لأحد رفاقه . . وأدار الوجه المنكفىء فى التراب ليرى صديقه أحمد قد حنا عليه الندى وبلله بدمعه .

وهم أن يواصل الهرب . ولكنه عاد أدراجه بعد خطوات ، وقد خال صديقه يقول له موبخاً : « إنك خفت الموت ، فهل تخاف أيضاً الموتى ؟ »

عاد أدراجه معتذراً . .وحمله ومضى به . وقال له أحمد وهو نائم على كتفه : « لم يعد ممكناً أن نقف معاً فى الشرفة ، ونطل على البنات المرحات فى شارع سليمان باشا . . سأعفيك منذ اليوم من الحديث عن فتيات أحلامى . ولن نتجادل ونحن ذاهبان إلى الأفلام والمطاعم أيها

نختار . ستذهب وحدك » .

وعندما وصل عادل إلى بقية الرفاق حسبوه خاض المعركة مع أحمد وزامله فيها . ولم يجد هو الشجاعة ليقول لهم الحقيقة . . وتركهم على وهمهم .

* * *

ولكن الحقيقة حاصرته عندما انفرد بنفسه فى بيته . . وتمنى لو أن أمه معه ولم تذهب ليقول لها : « كنت جباناً مرتين . عندما خانتنى الشجاعة . . وعندما ادعيتها وجثة أحمد على كتفى » .

* * *

واهتزت الطائرة فى مطب هوائى انتزع عادل من هواجسه . . وتبين أن ذاكرته قد قصّت عليه كيف فقد الابتسامة . عبثاً يطلب منها أن تكف عن سرد القصة المعادة التى يعرفها . وكيف لا يعرفها وهو يحمل جثة أحمد على كتفه دائماً .

ولم يكن أحمد هو الذى يقول له « أعوزتك الشجاعة » . . ولكنه كان يقولها لنفسه .

* * *

ومنذ ذلك اليوم فقدت الحياة طعمها ، وصار ينظر إلى نفسه كلما ألقى رأسه على الوسادة ، فى آخر الليل ، كما ينظر المدخن إلى أعقاب السجائر فى المنفضة .

سئم الوقوف فى الشرفة . الحياة البهيجة التى تتدفق فى شارع سليمان



لم تعد تعنيه . . رنين التليفون لم يعد له فى أذنه ذلك الوقع الحلو . الأصوات الناعمة عبء ثقيل . والضحكات الفضية ليس لها فى نفسه صدى . العيون السوداء والخضراء التى كانت تتقاذف قلبه ، وكأنه كرة ، عاجزة الآن عن أن تفعل به شيئاً . قلبه صار أثقل من أن يطير فى الهواء .

ومركز الثقل كان تلك الوصمة . . وصمة الهروب من المعركة .

* * *

وبحث عادل عن معركة يخوضها . .

ومرت السنون وهو يبحث . . وينقب عن خطر يتعرض له .

تفانى فى عمله الهندسى فى مكتب سليمان باشا . . ولكنه كان يشعر بأحمد واقفاً فى الشرفة يرقبه ساخراً ، ويقول له وضحكته تجلجل : « هذا عمل رجل ناعم اليدين . . أين الخطر فيه ؟ » .

وأضناه البحث عن الخطر . .

خرج فى قوارب صيد خفيفة إلى عرض البحر ، واختار الفروسية رياضة ركب لها كل جواد جامح . وكال اللكمات لكل من وقع فى يده فى الطريق وهو يضايق سيدة . وتحرش بفتوات النوادى الليلية . ولكن ضحكة أحمد ظلت تجلجل فى أذنه . .

وظل على قوله له : « هذا رائع ، ولكنه ليس رهيباً . . إن الخطر الحق هو أن تواجه عدواً . . هناك فارق بين من يموت وهو يتسلق الجبل فى نزهة . . وبين الذى يموت من رصاصة تثقب صدره فى معركة » .

* * *

وعندما وقع العدوان على بور سعيد كان ممكناً أن يجد هناك فرصته الذهبية . . ولكن المدينة ضربت وهو فى فراش المستشفى يستأصل الزائدة .

وبكى عادل . وفضل أن يظن الذين حوله أنه يبكى من ألم الجراحة . . وأن يجهلوا الجرح فى قلبه .

ولعل الانفعال والأسى . ووطأة الوصمة . . هو ما أصابه بمضاعفات وأخر شفاءه .

وأبل عادل من جراحته والاعتداء قد آذن برحيل .

وعاد إلى مكتبه . . وانتظر أحمد . كان يريد أن يقول له : « أرأيت ؟ . . لقد رفضتنى المعركة . . لا غفران لجبنى القديم . . ولا مفر من الوصمة ! » . .

ولكن أحمد لم يأت فى تلك الليلة . . وكأنه لم يشأ أن يضايقه .

ولم يلتقيا بعد ذلك . . فإن عادلا استقال من الشركة . . ولم يترك لأحمد عنوانه الجديد .

ترك الشركة وصار يتنقل من عمل إلى عمل . . وفى كل مكان ذهب إليه كان الملل له بالمرصاد . .مقاعد المكاتب كانت مريحة ، ولكنها مبطنة بالملل . . ومثلما يفعل العابثون بمقاعد السينما ، عندما يمزقونها بالمدى ، صار هو يفعل ذلك بالمناصب التى يتولاها وكأن بينه وبين النجاح ثأراً .

* * *

وهو الآن فى مقعد الطائرة الذاهبة إلى أسوان بعد أن هجر آخر وظيفة . . وقد اعتزم بعد عودته من رحلته القصيرة أن يسافر للخارج . وأعد أوراقه . . وادعى لنفسه أنه سيستزيد هناك من الدراسة . . ولكنه كان يعرف أنه يكذب على نفسه ، وأنه يريد أن يستشفى من السآمة .

* * *

وعندما وصلت الطائرة إلى الأقصر كان لا يزال يجتر أفكاره . ولم يتنبه والطائرة تحلق به من جديد إلى أن فتاة قد شغلت المكان الشاغر إلى جواره ، ولم يأبه لها .وكانت الحسناء قد ألفت أن يبدأها غيرها بالحديث ويتسول منها الإجابة . . وغاظها منه ذلك . . واضطرت أن تستأذنه فى تصفح جريدته لتتفرج على الكتابة العربية . . وهى تفتح الصحيفة اصطدمت يدها بيده . . وأدركت أنه موصل ردىء للحرارة ، وأن جمالها لم يبهره . .

وقالت له إنها أمريكية وإنها تتعلم الهندسة . . وقد جاءت إلى أسوان لاستكمال دراسة عن السدود .

وعندما عرفت أنه لم يزر أسوان من قبل ظنته سائحاً مثلها . . ولكنه أكد لها أنه مهندس مصرى . . وقبل أن تهبط الطائرة كان قد وعدها أن يريا السد معاً ، وفى حسبانه أنه سيهرب من وعده ، فإن به ضيقاً بالهندسة والإنشاءات .

* * *

كان عادل من مواليد حى جاردن سيتى ، وتردده على الأحياء الشعبية

كان أشبه بتردد أولاد الذوات . . أما القرى فكانت تمرق أمامها سيارته المرحة فيلتقط منها نظرة عابرة أشبه بنظرة المتفرج العجول إلى لوحة فى معرض الصور .

فلما وضعته الطائرة فجأة فى بؤرة الصعيد الأقصى أحس بوجدانه ينقلب رأساً على عقب .

رافقته الأمريكية الجميلة إلى منطقة السد . . ووقف هناك مأخوذاً . . وفى طريق العودة نسى أنها إلى جواره . وفى فندق الكتاراكت اطمأن إلى أنه لم يعد مسئولا عنها . . وأن صباها يضمن لها الكثير من الحفاوة .

ومضت عليه أيام ثلاثة وهو ينحى على نفسه باللوم ، لأنه جاء إلى أسوان متنزهاً ، وأن فتاة أمريكية هى التى أخطرت السد فى باله ودعته إليه .

منذ ثلاثة أيام وهو يحس كأن مشاعره تنصهر فى بوتقة .

لقد قرأ من قبل وسمع أن بلاده فقيرة وطيبة وسيئة الحظ . . ولكنه يشهد الآن ذلك ويتحققه . . الوجوه السمراء تقطر بساطة وبؤساً . . والبيوت من الطوب النىء من غير أقفال . فليس فيها ما يسرق أو يخشى عليه الضياع . وإلى جوارها مساكن الموتى تكاد تتشابه بمساكن الأحياء عبوساً واستكانة . .

وهنا وهناك يظهر مرفق نحيل لطفل من كم ممزق . . وعمال التراحيل الذين صعدوا من قراهم فى الدلتا ، إلى مصر العليا ، مازالت فى قسماتهم ظلال هم دفين . . ومازالوا فى حاجة إلى وقت لكى يتحول لون وجوههم

المترب إلى لون حى . . كأنهم لم يصدقوا بعد أن سوء حظهم الموروث قد آذن بزوال . . وكأنهم فى خوف أن تكون أجورهم الجديدة حلم ليلة صيف مقمرة . وأن يردوا إلى ما كانوا فيه من عوز وإقلال . ولذلك جاءوا معهم ، خوفاً من الجوع ، بخبزهم من الذرة الصفراء المخلوطة بالحلبة .. يتبلغون به مع أدامهم من البصل والمش .

وكان عادل يتفرس وجوههم فيخال أنهم هم بعينهم الذين حفروا قناة السويس . .هم وليس أجدادهم . . وأنهم بعثوا لأن القدر يريد أن يعتذر لهم عما ألحقه بهم .

يعتذر ويكحل عيونهم برؤية المستقبل .. فإن المستقبل قد لاحت تباشيره . . ورؤيته لم تعد متعذرة ولا محجوبة بالضباب .

إن صخور الجرانيت تتحرك من مكانها . وهى اليوم خيوط الحلم الجديد . . والجبل يفتح قلبه الصلد . .ويتمزق من حب ورضا ، والكراكة ترتفع بشظاياه الثقيلة وكأنها قيثارة ، تلتقط برشاقة نغمات خفيفة من نوتة موسيقية .

الجبل الذى تمنى أن ينفجر من غضبة زلزال جاءته المعجزة بيضاء لا تضمر شراً ، ولكنها تفيض حباً ورحمة .. والصخور تتنحى طواعية للنيل الذى يريد أن يغير مجراه قليلا ليغير وجه التاريخ كثيراً .

فى أصوات عمال التراحيل وهم يغنون سمع نفسه يغنى ووجد ابتسامته على شفاههم وهم يضحكون .

أينما ذهب عادل سمع قلبه يغنى . . من بين عيدان الزرع الضعيف

على حافة الصحراء قال لنفسه : وادينا ستمتد خضرته . .الأزقة الضيقة التى تتعرج كالسدود بين البيوت الفقيرة لن تكون هنا بعد اليوم .. ولا عودة إلى الوراء .

لا عودة إلى الوراء . . الكهرباء تتدفق وتسطع فى هذه البقاع التى عاشت أجيالا على نور السراج . . تسطع وتدير مصنع السماد . وبيوت المصنع البيضاء المكيفة الهواء لا يسكنها الخواجات الذين يشرفون على العمل كما كان الحال من قبل. . إنها الآن بالمئات . . ولكن هذه هى البداية .

ورأى مجموع العمال المبتهجين وقد نقعت فى التراب الأحمر ثيابهم ووجوههم الضاحكة . . إنهم قادمون من مناجم الحديد . . ترابنا مسته معجزة . . وكما كان ينبت القمح والقطن والقصب سينبت القطار والطائرة والغواصة . .تفاءل يا أخى وثق فى الغد. . فلا عودة إلى الوراء .

* * *

تفاءل يا عادل ولا تبتئس . . إنك واهم إذ تحسب نفسك جباناً فاتته معركة ورفضته أخرى . الوصمة فى خيالك ، وليست فى قلبك الطاهر . . خيالك ضالك حين صور لك أن الشجاعة الوحيدة هى الشجاعة المختومة بالدم . . البلد الذى يبنى نفسه معاركه لا تنتهى .. وهنا فى أسوان ساحة معركة. . علينا أن ننتصر فيها على الذين يتمنون لنا الإخفاق ويعملون له. . والذين يفتون فى عزمنا. .فيقتلون إيماننا . . ويصورون لنا أن الخدش فى خطتنا جرح مميت . . والهفوة الصغيرة مصيبة قاصمة .

وتنبه عادل على يد توضع على كتفه ، وإذا هو أحد زملاء الدراسة فى كلية الهندسة . .

وقال إبراهيم لعادل : « أنا أعمل هنا فى إنشاءات السد . أقصد كنت أعمل هنا . ولكنى وجدت وظيفة فى القاهرة ، واستقلت . تسألنى لماذا استقلت ؟ ألم تسمعنى ؟ . .قلت لك جاء الفرج من القاهرة . . إنك واقف الآن تنعم بشمس يناير . ولكن تعال إلى هنا فى يوليو ، لكى تدخل جهنم وتنصهر فيها . ستضربك الشمس وتطيح بك . . إنك فى الأسابيع الأولى هنا تظن نفسك فى نزهة . .ثم تمضى الأشهر ويستولى عليك الشعور بأنك فى منفى . ثم تكتشف أن الخبرة التى كسبتها تستبقيك ، وأن مصير العمل هو مصيرك . . إنك سجين هنا ماحييت . . .وتحس عند ذلك أنك على حافة الجنون . . صخور تنسف وتنهمر فوق رأسك كالمطر . . وضجة الجبل وضلوعه تتحطم وتصم أذنيك . . إذا كانت لك زوجة فستبكى من الوحدة والضجر . .وإذا كانت لك حبيبة فستزهد فيك وترفض الحياة هنا . .وإذا مرضت فلا تطمع فى إخصائى . سيكون الموت أقرب إليك من العلاج الصحيح .

ثم ماذا أنت هنا ؟ . . مهندس مغمور . . ستجد نفسك ضائعاً فى زحام هذا العمل الكبير . . لن تجد اسمك مكتوباً على جدران السد عندما يتم . وأنا لست مغرماً بلقب الجندى المجهول أظفر به بعد أن أشقى سنين فى طريق الموت البطىء .

* * *

وودع إبراهيم صاحبه ومضى فى طريقه . .

وعرف عادل وهو يتبعه بنظرة آسفة أن هناك عدوًّا لم يكن ملتفتاً إليه يقيم مع الإنسان داخل ثيابه . .

وفى الصباح تقدم عادل بطلبه لكى يشغل وظيفة إبراهيم التى خلت .

وعندما قبل طلبه أحس أن المعركة ترحب به ولا ترفضه. وأن الوصمة القديمة تنصرف من قلبه .

* * *

ووقف فى منطقة السد يتأمل إحدى الكراكات وهى تقضم الجبل وكأنه يتأمل قيثارة تعزف . وحانت منه التفاتة فرأى الأمريكية الحسناء جالسة فى الشمس وبين يديها أوراق ترسم فيها المنطقة .

واقترب منها ، ولأول مرة منذ وقت بعيد ابتسم ابتسامة دافئة .

وأدهشها أنه يبتسم لها بعد طول إهمال .

ولم يخطر فى بالها أنه يبتسم للأوراق بين يديها .

سارق الحلق



استيقظ فى الظهر .

هذه عادته منذ صار نجماً محبوباً .

وجاءه خادمه بالتليفون . . وبينما هو يدير القرص بأصابع ماتزال نائمة وضع الخادم أمامه صينية عليها تفاحة وكوب من عصير البرتقال .

هكذا تعود النجم المحبوب أن يبدأ يومه أو يتوسطه ، إذا تذكرنا أننا فى الظهر .

وأعاد السماعة إلى مكانها بعد أن قال صوت حلو فى الناحية الأخرى من الخط : « النمرة غلط » .

ولم تكن النمرة غلطاً . . ولكن الجملة كانت اصطلاحاً تمنع به « نوسة » المكالمة إذا كان زوجها فى البيت .

ومضى الممثل يفكر فى نوسة ، وهو يقشر التفاحة . . وابتسم وهو يقول لنفسه إنها تشبهها رونقاً ومذاقاً . . بل إن نوسة لاشك أشهى . . إنه يدرك ذلك برغم أنه لم يقشرها بعد من ثيابها

وابتسم ابتسامة الواثق من أن ذلك سيحدث قريباً . إنه يعرف أنه شديد السلطان على النساء .

ورنّ التليفون مرة أخرى ، وخواطره السعيدة تمرح فى رأسه . وسأل

صوت حالم عن الأستاذ ، فأجاب بأن الأستاذ نائم ، وزعم أنه خادمه .
ولم يكن يعرف صاحبة الصوت . . واعتذر أمام ضميره عن هذه القسوة
أنه لا يستطيع أن يلبى نداء كل المعجبات ، فإنهن كثيرات . كثيرات .

ورن التليفون مرة ثالثة . . فرفع السماعة وألقاها جانباً ، وهو كالواثق
من أنها معجبة أخرى .. أف منهن ! ومن التفاح ، ومن عصير الليمون !

واشتهى الممثل طبقاً من الفول مغطى بالبيض ورغيفاً أسمر وبصلا
أخضر . . اشتهى وتحسر ، فإن لرشاقته عليه حقاً . . وهو يعرف أن
« عوده » هو الذى يجذب شركات الأفلام . . والنساء !

* * *

ومنذ سنين قليلة لم يكن الأمر هكذا . . لم يكن يتناول الإفطار
إطلاقاً . لاعتبارات اقتصادية . . وفى الظهر والمساء كان الفول فى أغلب
الأحيان طبقه المفضل . . ولم تكن تصيبه من ذلك سمنة .

وتقلصت ابتسامته وهو يتذكر تلك الأيام . كان يدمج ميزانية
الطعام فى ميزانية المواصلات . فإما أن يتخذ من الفول فى معدته وقوداً
يدفع كيانه الهزيل من مسكنه فى السيدة إلى عماد الدين . . وإما أن
يصوم ويركب الترام .

أما الآن فإن عربته القوية حلت المشكلة . . ولم يعد يخاف الجوع
ولكنه صار يخاف الشبع .

* * *

وفى عماد الدين كان يجلس على رصيف المقهى . . ومن ستر الكريم

أن المعدة ليست شفافة . . وأن العيون لا تستطيع أن ترى أمملوءة هى أم خاوية ؟ . . وكان يعزيه أن ما يظهر منه للناس هو بدلته الأنيقة وشعره اللامع وذقنه الحليق .

وكان الناس من حوله على رصيف المقهى يحملقون فى المارات ، وينثرون تحت أقدامهن التعليقات الجنسية ، وأحياناً يذهبون فى أثرهن ، وأحياناً يتآمرون معهن على سهرات حمراء . .أما هو فكان يعف عن كل هذا ويتجنبه ، فقد كان فى حاجة إلى رضاء السماء عنه . وكان قلبه يخاطب خالقه مناجياً: « يارب . إنى لا أتقيك لأنى خاوى الوفاض. . سيكون هذا حالى أيضاً لو ملأت يدى وأعطيتنى . . على الدوام سأبتغى مرضاتك» .

* * *

وانسحبت الابتسامة تماماً وذكريات المقهى تضرب حوله حصارها. . كان تقاه يعطف عليه « سماحة » جرسون المقهى .

وكان سماحة يقرضه ويقول له : الصبر مفتاح الفرج . الأستاذ فلان الذى يكتسح الشارع بسيارته الآن كان فى الماضى يتوسل إلىّ أن أعفيه من طلب القهوة لضيق ذات اليد . . المهم ألا تطغى عندما يفتح الله عليك . . أن تصلى الفرض كما تفعل الآن .

* * *

وسماحة نفسه كان يصلى ، ومع ذلك ذهب إلى السجن ، فقد ضبط فى قعدة كيف . وكان له ابن يافع يعمل صبىّ كواء . .

وأوصى السجين ابنه أن يجمع النقود التى له فى ذمة الزبائن ويوكل له محامياً . وجاء الكواء يطالب الممثل العاطل بتسعين قرشاً ، وكانت المطالبة أمام رواد المقهى جارحة وملحة ومذلة . . من أين يأتى بهذا المبلغ الطائل ؟ . . وشعر أنه مسئول عن حرية سماحة ، وأنه سيسبب بقاءه فى السجن .

وفى ذلك المساء مشى كما لم يمش من قبل . . ساعات وساعات . ونسى أن يصلى ، ونسى أنه جائع .ولم يعد يذكر إلا أنه مخلوق ردىء منكود لاضرورة له . . ولا يساوى قرشاً ، وتمنى وقد ملأه السخط لو يدخل فى شجار . لو تلبسه تهمة ويذهب إلى السجن . . إنه لن يقاوم ، ولن يدافع عن نفسه لو أن هذا حدث . . وقادته قدماه إلى البيت . . وفى المدخل سمع شبشب « حميدة » يقرع الدرجات وهى تهبط السلم . . وكانت حميدة تقطن الطابق الرابع مع أمها . وكانت فتاة ملفوفة ناضجة فى خديها غمازتان ، وفى عينيها منجم للابتسام . . وكانت أم حميدة تستدعيه أحياناً لكى يكتب لها رسائل إلى أقاربها فى البلد ، فيصعد ويرى الفتاة وقد استعدت لاستقباله بغسل وجهها ودعكه بالمنشفة حتى يحمر ويتوهج ، وكان ذلك أقصى الزينة . . وكانت عينه تقع على صدرها وثغرها وساقها . ثم يحبس نظراته وراء قضبان السطور التى يكتبها ويلعن الشيطان .

أما فى تلك الليلة وحميدة تهبط السلم فقد أحس كأن الشيطان يقيم داخل دمه . . وكان الظلام دامساً فى الدهليز ، وهناك وقف متربصاً ،

وعندما وصلت جذبها إليه وفى نفسه أن ينهب كنوز صدرها وشهد شفتيها .

ولكن حميدة أصابها ذعر شديد ، ودفعته عن نفسها ، وباعدت بينها وبين يديه المحمومتين.. وهمست متوسلة: « أنا مخطوبة يامحمد ». ولما لم يردعه ذلك صرخت .

وعندما ظهر السكان من شقق البيت وقفوا ، وفى أيديهم مصابيح البترول ، على بئر السلم . أيقن الممثل من الفضيحة ، وأسقط فى يده ولكنه فوجئ بها تجيب على استفسارات الناس : « حرامى . هرب لما شاف محمد . . ربنا يسترك يا محمد اخرج اجرى وراه . .يمكن تلحقه » .

وعندما عاد بعد منتصف الليل كانت الضجة قد هدأت ولم تخلف إلا مصباحاً صغيراً ينير الدهليز . وفى الضوء الخافت رأى الممثل شيئاً يلمع عند قدميه . .وانحنى والتقطه . .وإذا هو فردة حلق . .وعرف أنها تخص حميدة ، وأنها سقطت منها وهى تقاومه .

* * *

وفى الصباح كان قد وصل إلى قرار . إن الفتاة الطيبة لن تضار لو عاشت بغير حلق فى أذنيها . . وخرج يبحث عن صائغ . وبعد ساعة كان قد دفع دين سماحة ، ورافق ابنه إلى المحامى . وفى الظهر أكل « تيفة » فى سيدنا الحسين وشرب الشاى فى الفيشاوى .

* * *

وتنهد محمد وضميره يذكره بفردة الحلق .. كانت تلك الأيام هى

ختام النحس . . ثم جاء النجاح والمال ، ونسى الممثل وعوده للسماء . . وملأت الخطايا مخدعه . . ولم تقابله حميدة أخرى تخاف اللص . فى حياته الآن نساء كثيرات يبحثن جاهدات عن لص يسرقهن .

وأفاق على ضحكة رقيقة تتسلل إلى الحجرة . وإذا هى « نوسة » تقول له مداعبة : « النمرة غلط » . ثم تضيف فى بساطة ، وهى تجلس على حافة الفراش : « كان نصحى نازلا . . من مصر الجديدة بالسيارة . . وقلت له خدنى معاك »

ومضت لحظة صمت تذكر فيها الممثل أن نصحى هو زوجها .

ثم قطعت نوسة الصمت بقولها فى دلال : « نزلت فى شارع عماد الدين لأشترى أشياء » .

وأحس كأنها تقول له : « نزلت لأبيعك نفسى » .

وكان الصلاح الذى جالسه على رصيف المقهى فى الأيام الخالية قد فارقه منذ زمان . واشتهى أن يتم الصفقة التى يغريه بها الصوت المدلل . . وجذب نوسة إليه . ولكنها قاومت . . بشدة ونشبت بينهما معركة تافهة . . فإن الحسناء كانت قد قررت أن تغلب على أمرها .

* * *

وفى اللحظة الحاسمة وقعت عين الممثل على شىء يلمع فوق البساط . . إنه سوار نوسه الماسى سقط منها فى أثناء الشد والجذب .

وبرق فى ذاكرته فجأة حلق حميدة وهو يلمع فى تراب الدهليز .

وتراخت يده المشدودة على خصر السيدة وهو يصغى إلى همس

حميدة القديم فى ظلام الدهليز : « أنا مخطوبة يا محمد » .

وأحس الفتور يدبّ فى نفسه وجسده وهو ينظر إلى نوسة . وأحس الاحتقار يزاحم الفتور . إنها أيضاً ممثلة . تستدرجه إلى الانتصار عليها وتجهز فى عينيها مقدماً دموع الندم على سقطتها . . وإنها لكاذبة . . المقاومة كانت هناك ، من حميدة . فى ظلام الدهليز . . هناك لحقه الخذلان . .

ووجد نفسه يوصلها إلى الباب .

* * *

وبعد انصرافها تبين أنها لم تدرك أنها فقدت السوار ، وانحنى والتقطه .

وبعد ساعة كانت سيارته تأخذ طريقها إلى حى السيدة .

ووقفت السيارة فى مدخل الحارة .. فإن المدخل كان ضيقاً ، والسيارة كانت كبيرة .

وتجمع الناس حوله . لم يعرفوا الفتى الذى كان يسكن حارتهم منذ سنين . ولكنهم عرفوا النجم المحبوب وهللوا له .

* * *

وزاد ذلك من أمله فى أن يبهر حميدة أيضاً . إنها قاومت التعس الفقير . لكنها ستخضع للبطل ، وسيغشى بصرها بريق المجد .

* * *

وعندما وصل إلى الطابق الرابع وفتحت حميدة الباب ورأته أضاء وجهها ورحبت به .

وفى الردهة الداخلية كانت هناك صورة طفلة معلقة على الحائط. وأدرك أن حميدة تزوجت الساعاتى خطيب الأمس .

وقالت حميدة إن أمها خرجت إلى السوق . . وحدث نفسه أن الفرصة سانحة . وبينما هى تصنع له الشاى أخذت عينه تفحصها . إن قوامها مازال خصباً ، وشفتيها بلا أصباغ كالكرز فى الصيف ، ومنجم الابتسام فى عينيها زاد غنى .

وأحزنه أن شهرته لم تبلغها . . وأنها لا تدرى أنه صار نجماً . ولم تذهب إلى سينما لتراه . واضطر أن يحكى لها عما فعله الحظ به . . وأخذها إلى النافذة ليريها السيارة . وهناك وضع يده على خصرها ، ولكنها راغت منها فى هدوء ، وابتعدت عن النافذة . .وتشاغلت بحمل الطفلة بين ذراعيها . . ولم تقل له وهى تخطف نظرة من الصورة على الحائط : « أنا زوجة » ، ولكنه قرأ ذلك فى منجم الابتسام ، ولاحظ أنها تبتسم وتفكر معاً ، وأنها تقيس بعينيها المسافة إلى باب الشقة لكى تجرى إليه إذا بدر منه شىء يشبه الذى فعله بها فى الدهليز . وأحس الخزى من ريبتها . وود لو يستطيع أن ينفى عن نفسه أنه جاء ليخون . . وفجأة بدا عليه وكأنه عرف لماذا جاء . . وقال لها وصوته يرتجف : « أنت لا تعرفين . . أنا سارق الحلق » .

وشعر وهو يهبط السلم ويغادر البيت أنه أشرف قليلا مما جاء .

وعندما تبعه تهليل المارة والأطفال . وهو ينطلق بسيارته ، خيل إليه

أنه واحد منهم ، ينظر ساخراً إلى النجم المحبوب .

وعندما ابتعدت السيارة عن الحى قال له قلبه إنه يبتعد عن الحقيقة .. ويعود إلى الوهم الكبير .

سيّدي الراكب ..!



المهر الذى دفعه البرنس لنظاكة كان ضربة سكين فى ذراعه . .
والبرنس لم يكن من أسرة مالكة.. فسكان خان عنتر ، حيث نشأ ، لم تكن
تجرى فى عروقهم دماء زرقاء ، ومع ذلك كان الفتى برنساً . إذا انتهى
من عمله كسائق تاكسي فى شركة الشمال ، أسرع إلى بيته يغتسل ويمشط
بعناية شعره المجعد الخشن ، ويثبته بمادة صمغية ، ثم يرتدى قميصه
السكروته والبنطلون النظيف ، ويلبس الحذاء الكريب ، ويربط ساعته
على معصمه فوق سوار القميص .. ثم يذهب إلى القهوة .

ولم تكن الأناقة وحدها هى التى جعلت منه برنساً . إنه الكرم
أيضاً . كان مزاجه فى الحياة أن « يصرف » على أصحابه . . فى القهوة
يطلب لهم « المشاريب » .. وفى الأزمات يظهر حين يختفى الآخرون
ويخف إلى النجدة .. إذا مرض زميل ساق السيارة بدلا منه إشفاقاً
على أجر يومه أن يضيع ، وإذا نشب الشجار بين أصدقاء دخل بينهم
بالصلح ودعاهم إلى قعدة على حسابه فى الخمارة .. لكى تتصافى
النفوس .

وعلى مر الزمن لصق به لقب « البرنس » ، وحتى هو نفسه بدأ
ينسى أن اسمه . طلبة .

وكان طبيعياً أن تقع « نظاكة» فى حب البرنس . . ومن الإنصاف أن نقرر أنها هى التى شاغلته وبدأت المعاكسة. . كانت نافذتها تقع أمام قهوة الوردة البيضاء . . وعندما كان البرنس يشرب الشيشة على الرصيف فى العصارى كانت نظاكة تكثر من الظهور فى النافذة ، عندما يكون وحده ، وتضع على إفريزها القلل لكى تبرد فى الهواء . . وتسقى اللبلابة وقصرية الريحان . وتطيل الجدال مع بائع البرتقال فى الثمن وصدرها يتأرجح مع حركاتها الكثيرة ، وكأنه فاكهة أشهى من البرتقال بزمان .

ولما كان البرنس ابن فن لم يخف عليه أن نظاكة لا تنادى الباعة ، ولكنها تناديه . . وأيقن من إغلاق النافذة كلما شاركه آخرون فى جلسة الرصيف أنها تخصه وحده بالظهور ، وأنها تلحظه على الدوام من وراء الخصاص المتحرك .

* * *

ومنذ ذلك الحين اشتد حرص البرنس على « قعدة » الرصيف . . ولم تكن المسافة تسمح بأن يتبين نظاكة وراء النافذة المغلقة ، ومع ذلك كان يجد فى قلبه عينيها العسليتين ، والسن الذهبية الضاحكة فى ثغرها . . وعندما كانت تقع « البنت» فى يده وهو يلعب الكوتشينة كان يراها صورة طبق الأصل من نظاكة ، لا ينقصها إلا الملاءة المخزقة على خصرها النحيل .

وذات مساء ظهرت الملاءة المخزقة فى الطريق. . ولم يفاجأ بذلك ،

فقد رأى فى النافذة المفتوحة أنها تتأهب للخروج .

وتبعها البرنس من بعيد . . ثم من قريب .

وكانت نظرة فابتسامة . . فعهد على الزواج .

* * *

والحب يرفع الروح المعنوية . . ويشحذ الهمم . . وهذا هو السر فى أن البرنس كره اللوريات ، وصار سائق تاكسى بعد شهر واحد من اللقاء الأول .

وصار فى وسعه أن يأخذ نظاكة إلى نزهات خلوية بعيدة .. وفى أمان من العيون أطلقا العنان للتنهدات . . وتكاشفا بأنهما لم يعد لهما جلد على الانتظار .

واشتد سخطهما على العقبة التى كانت فى الطريق .

أبو « نظاكة » كان « استرجى » فى ورشة موبليات .. معلم كبير فى صنعته . . الخشب الخشن العابس يتحول تحت لمساته إلى شىء براق له بهجة ورواء . كان يقبل على عمله بروح الفنان . كل قطعة أثاث يتولاها يجد لها فى قلبه من الحب ما يجده المثال وهو ينحت تمثالا والرسام وهو يرسم صورة ! . .

ومن هنا أكبر « حسنى » وتمناه زوجاً لابنته . . وكان حسنى نجاراً دقيقاً يعمل فى الورشة نفسها ويبدع . . وتأخذ مصنوعاته طريقها إلى معارض الأثاث فى شوارع القاهرة الكبيرة ، وكان أبو نظاكة يهتز

طرباً كلما رأى صنعة حسنى ويقول له : أنت ملك النجارين .. وحسنى يفغر فاه من الدهشة ، وهو ينظر إلى الموبليا بعد الدهان ، ويقول للرجل العجوز : « أنت ملك الأسترجية » .

وبين الملكين .. ضاع البرنس !

* * *

عندما ذهب ليخطبها ، وعرف أبوها أنه سائق تاكسى ، نظر إليه باستخفاف . وعندما قال له إنه فقير لا يستطيع أن يدفع مهراً ولا أن يفرش ثلاث غرف ، تحول الاستخفاف إلى احتقار ، وقال له بلا مواربة : « عندى العريس الذى يستطيع هذا » .

واندفع البرنس قائلا : « تقصد حسنى . حسنى علة على قلبها . . إنها تكرهه . . ولن تتزوجه أبداً » .

وقال له الرجل بدهشة : « وكيف عرفت ؟ » .

وارتبك البرنس . وأدرك أن لسانه خانه ، وبرطم بكلام غير مفهوم .

وأيقنت نظاكة التى كانت تتسمع وراء الباب أن أمرها انكشف .

وعندما شيعه أبوها حتى السلم كان احتقاره للبرنس قد تحول إلى مقت .. لقد اكتشف سر تحول فتاته عن حسنى . . هذا الشاب إذن هو الذى يتدخل بينه وبين حلمه الشائق أن يصنع حسنى لابنته ثلاث حجرات .. يدهنها بيده . بكل ما يملك من براعة وحذق وحب لوحيدته . . موبليا تكون حديث الحى .

وأحس مدبولى أن المقت لا يكفى .. وأنه لا يستطيع أن يكتفى بالسخط على البرنس. . ووجد نظاكة فى وجهه ممتقعة من الخوف ، وألهمه خوفها ما يفعله. . ضربها. .ضربها حتى كلت يده . ونفرت عروق رقبته وهو يصرخ : « بنت مدبولى تقابل الشبان سراً . لم أتزوج بعد موت أمك إكراماً لك . . خفت عليك أن تمسك إهانة. . وهذا هو جزائى أن يلحقنى الهوان بسببك وينظر إلى شاب لا أعرفه فى تحد وكأنه يملك منك ما لا أملكه ؟ ! » .

وخرج مدبولى من البيت غاضباً قبل أن يكمل شكواه منها. . ولو أكمل لقال: « إننى عشت كل هذه السنين وأنا أشتهى أن أملك قطعة موبليا واحدة من القطع التى تمر تحت يدى . ولكن ذلك كان مستحيلا . . وعندما أصبح المستحيل ممكناً على يد حسنى لا تريدين أن تتزوجيه ، وتتآمرين عليه وعلىّ . . حسناً ! » .

* * *

والأيام التى مرت بالبرنس بعد تلك الأزمة المفاجئة كانت قاسية. . كان يعامل الزبائن الذين يركبون معه بعصبية وخشونة ، وكان لا يسمعهم وهم يعينون له مكان النزول من شرود ذهنه ، وكانوا يتهمونه أنه يتعمد الخطأ طمعاً فى المزيد من الأجر ، وقلما كان ذلك يمر من غير شجار .

ومع ذلك لم يكن يعدم زبائن طيبين يعاملونه بالحسنى ، ويتبسطون معه فى الحديث .

وذات مساء تحدث مع راكب من هؤلاء عن هموم الدنيا ، ورفع

التكليف ، وفتح له قلبه .

قال للراكب : « صحيح الدنيا تنورت ، ولكن هناك آباء عقولهم مظلمة . . يعتقدون أن الحب عيب ، كأننا مانزال فى الجاهلية . .

« إنه يرفض أن يزوّجنى لها ، أنا الذى أعبدها ، ويفضل علىّ آخر من أبناء كاره . . نجار أمى . لا يعرف الألف من المدنة . . ولكنه يستطيع مالا أستطيعه . . يستطيع أن يحول الخشب إلى موبليا تفرش ثلاث حجرات .

« ولكن هذا الزواج لن يتم لأنها تحبنى . نافذتها الآن مغلقة باستمرار حرم عليها أن تطل منها حتى لا ترانى ، ولكنى واثق أنها وراء النافذة المغلقة ، لأنها تحبنى . . وهى لا تخرج أبداً . حبسها فى البيت . . ولكنى متأكد أن الحبس لن يخضعها . . ولا الجوع . ولا العطش . . لأنها تحبنى » !

ولما كان مشوار الراكب طويلا . من العتبة إلى مصر الجديدة لم يجد البرنس بأساً فى أن يحاضر الزبون الطيب فى الحب .

اندفع يقول له : « وهل قلب الإنسان فى يده حتى تطلب منى أن أنساها . . أنا أعذرك إذ تحسب أن النسيان ممكن . . يظهر أنك لم تحب قط . ولكنك لو كنت حجراً ورأيت نظاكة فإنك تلين . . آه يا سيدى لو رأيت عودها ، وخصرها والملاءة تطوقه . . إنك تتذكر فى الحال العرائس التى تعرض عليها الفساتين فى فترينات شارع ٢٦ يوليو فى البداية . . قبل أن نقع فى الحب ، كلما رأيت الملاءة تخطر فى الشارع

وأنا فى أثرها كنت أقول لنفسى يكفينى يارب أن أرى قوامها فى الفستان الذى يخفيه هذا الحجاب الأسود ثم أموت . .

« ولكن ربك تركنى أعيش . . وسمح لى أن آخذها إلى القناطر . وأنتحت الملاءة عن فستانها الأحمر يتوهج منه وجهها الأبيض ، فخيل إلى كأنى أرى ناراً تتوهج فى الليل وتشقه ، ودار رأسى وقلت لربى : « أرى بديع صنعك الملفوف فى هذا الغلاف الأحمر ثم أموت » بنى آدم طماع يا سيدى .. وأسرعت إلى أبيها أخطبها منه لكى أثبت لربى وربك أننى تمنيت أن أرى ما يخفيه الفستان . . فى الحلال .

« ولكن أباها كما ترى يا سيدى الراكب رجل خلا قلبه من الرحمة . . يريد أن يبيع ابنته ببضع قطع من الموبيليا الفاخرة . . آه لو كنت أعرف يا سيدى هذه المصيبة مقدماً ، لأطبقت يدى على كل قرش كسبته . . ولكن البرنس اعتقد دائماً أن لذة الكسب فى الإنفاق . . واصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب . .تصور فعل الحب بالنفوس.. البرنس يندم على أنه لم يكن بخيلا . . بل يندم على أنه خلق . . بعد منتصف ليلة أيقظت أمى عندما عدت إلى البيت وصرخت فى وجهها : هل كان من الضرورى أن تتزوجى وتلدينى للشقاء ؟ ! . . ودقت على صدرها وهى تقول لى : هل هذه هى الرحمة التى ترسلها إلى أبيك فى قبره يا برنس ؟ .. وصحت بها : يا مجنونة ، حتى أنت صدقت أنى برنس . . إننى معدم . . عاجز عن أن أشترى جهازاً لنظاكة وأنقذ الحب .

« وعند ذلك تنبهت أنا وأمى فى وقت واحد إلى أنى سكران . وتذكرت أنى قادم من «خمارة سبعة باب . إنى أعرف ما هى الخمر الجيدة . ومع ذلك ذهبت إلى هناك عمداً وطلبت زجاجة كبيرة من « الطفية » لكى أنسى . . ومع أن الطفية فيها من ماء النار شبه فقد أشعلتها بكبسولة سمراء . . ماركة جديدة اسمها منزول المهداوى . أكد لى بائعها أن الذى يبتلعها لا ينسى همه فقط بل يقول شعراً فكاهياً ويكتشف أنه دكتور فى القانون . وتنساب منه المواد المفرقعة . . وينسى همه . .

« وبعد أن أفلت من لسانى اسم نظاكة لم أجد جدوى من إخفاء الأمر عن أمى . كل الذى أفلحت فيه الخمر أنها ردتنى ولداً صغيراً يلتمس أنامل أمه على جبينه الملتهب وهو يعترف .

« وفى الصباح استيقظت يا سيدى الراكب على طرق فى رأسى . .

« وناديت أمى طلباً لكوب الحلبة الذى كانت تصمم أن تسقنيه كل صباح ، ولكنها لم تكن فى البيت .

« وبعد ساعة عادت . .متهللة الوجه . . أمى مجنونة قليلا يا سيدى الراكب . قلت لنفسى لعلها ذهبت إلى بيت الأسترجى وضربته . فهذه هى طريقتها مع أى رجل أو امرأة .

« ولكنها كانت أذكى من ذلك . .لقد ذهبت إلى الشيخ ريحان

ومعها «أثر» «نظاكة». . خصلة شعرها التى وجدتها فى جيبى . وقد كتب لها الشيخ رَيحان «العمل» ، وأذابه فى الماء . ورشت الماء من فورها على عتبة بيت الأسترجى . . وهى واثقة من النتائج . واثقة أن رجل حسنى النجار ستكسر إذا تخطاه . .

« هل تظن أنها تنكسر حقًّا يا سيدى الراكب ؟ » .

ولم يجب الراكب : فقد كان مشغولا باستكشاف الطريق . . وكانت السيارة قد وصلت إلى حافة الصحراء فى آخر مصر الجديدة . . وتنبه البرنس على صوته وهو يقول له : « قف» .

وبرغم أنه لم تكن هناك بيوت ينتهى عندها المطاف فإن الزبون دائماً على حق. ولذلك انصاع البرنس للأمر .

ونزل الزبون ونظر إلى العداد ثم نظر حوله . . ودس يده فى جيبه . ولكن يده بدلا من أن تخرج بالنقود خرجت بخنجر . . وطعن به السائق وهو يزمجر : « أنا حسنى الذى تريد أن تكسر رجله » .

وعندما أطلق ساقيه للريح كان يعتقد أنه قتل البرنس واستراح منه . ولكن البرنس كان قد حمى قلبه بذراعه وتلقى فيها الطعنات .

وعندما يكون المهر ضربة سكين فى الذراع لا يستغرب أن يتم الزفاف فى القسم ، بعد تمرد نظاكة وغضبها من محاولة اغتيال حبيبها .

ولما كانت والدة البرنس مجنونة قليلا فقد زغردت فى القسم والضابط يشهد على القسيمة .

وعلى باب القسم وقفت تاكسيات تزيد على الثلاثين لتزف العروس . وذلك أيضاً لم يكن مستغرباً والبرنس صاحب فضل على الإخوان ، وله حاشية وأحباب .

* * *

الشيء الذى كان غريباً حقاً أن والدة البرنس اختفت من البيت بعد شهر من زواجه .

ولما كانت مجنونة قليلا فقد اعتقد ابنها أنها فضلت أن تطفش على أن تعيش مع زوجة ابنها تحت سقف واحد .

وبعد أن تعب من البحث عنها ذهب إلى الشيخ ريحان يستعين بعلمه على المشكلة .

وابتسم الشيخ ريحان ، وقال له وهو مسبل الجفنين « إن العمل » الذى رشته أمه على عتبة الأسترجى كانت منافعه جمة .

ثم همس فى أذنه ببقية الحديث .

* * *

ولم يصدق البرنس أذنيه ، وأسرع إلى بيت مدبولى الأسترجى ودق الباب .

وفتحت له سيدة مجنونة قليلا ، اصفر شعرها الأسود ، وخضبت الحناء كفيها ، واختفت تحت الطلاء الأحمر بشرتها الداكنة .

ورأت الشر يقدح فى عينى ابنها ، وأحست كأن نظراته الشرسة تبحث عن سكين ، فأسرعت إلى الدولاب وعادت بقسيمة الزواج .

وبينما البرنس يتصفحها بعينين زائغتين وصل إلى سمعه صوت قرير .. كان الأسترجى جالساً إلى الطبلية على مقربة من السرير ، وأمامه زوج من الحمام . .ولم يكن يبدو على مدبولى أنه راغب فى الكلام الطويل . لقد رفع وجهه ليقول للبرنس بهدوء : « إنك آخر من يعترض على الحب » !

ثم انكب من جديد على طبقه .

الممر التجاري



الربيع فى ذلك الصباح كان خلىّ البال ، وكان يعدّ نفسه فى إجازة ، فقد أتم عمله . الأغصان الجافة أجرى فى عروقها دمه الأخضر .. وكتب شهادة الميلاد لملايين الأزهار التى كانت أجنة فى بطن الأرض السمراء . . والسماء خلع عنها كسوتها المرقعة بالغيوم ، ودثرها بالقطيفة الزرقاء . . والعصافير المغردة ألف لها أغانيها الجديدة .

أما العذارى فكن فى أول جدول أعماله . . تسلل إلى قلوبهن بالأمل . . وإلى عيونهن بالبريق . . ولف ساعده حول خصورهن فنحلت .. وخلّى عن صدورهن فنفرت . .ووعدهن أن ينشر ، بشكل وبأى ، نوعاً من الخصبة . . اسمه الحب . .

* * *

ولأن الربيع فى ذلك الصباح كان خلى البال ، وليس لديه ما يعمله ، أخذ يتسكع فى الشوارع . . وراقته شجرة من أشجار « دقن الباشا » فتسلقها ، وأحس الرثاء للباشوات ، الذين ذهبت ألقابهم ولم يبق منها إلا أذقانها ، فجعل يمشط شعرها بأصابع النسيم فى حنان .

لكنه لم يلبث أن مل هذه التسلية ومد بصره إلى نافذة قريبة .

وكانت نافذة فصل فى مدرسة بنات .

* * *

ونظر الربيع إلى البنات وابتسم . فقد تبين أنه رآهن من قبل ، وكن فى رحلة فى القناطر ، وجذبهن إليه أنهن من عمره ، وحلا له أن يلحظهن من بعيد . . وها هو ذا يتبين أنه قد احتفظ بملامحهن فى ذاكرته الوردية .

هذه ذات الغدائر تبدو منهمكة فى حل مسألة الحساب . ولكنها تكذب على الحساب . . إنها تكتب خطاباً للفتى الذى كان يخالسها النظر فى الحديقة . . إنها تقول له : « تسلمت رسالتك الأولى ، وأسعدنى أن المشرفة لم تستطع أن تضبطها .. قرأت المكتوب فى عينيك كلمة كلمة.. لغتك فصيحة وجميلة . . وابتسامتك هى أظرف ساعى بريد فى العالم . قد فهمت ما تريد أن تقوله . . أنا أيضاً أحبك . . ولكنى خائفة . . كيف أحب من أول نظرة شاباً رأيته فى القناطر مصادفة . . هذا ليس تراجعاً من فضلك ، ولكنى صريحة . . إننا لم نتحدث إلى الآن . . هل تجيد الحديث ؟ . أنا أموت فى الكلام الحلو . وقد حلمت دائماً أن الذى يضمنى إلى صدره ينطق الراء غيناً ، فإن لم تكن كذلك فإنى أفضل أن أنساك من الآن وأوفر تنهداتى » .

وفى هذه اللحظة غادرت معلمة الحساب مقعدها ، وبدأت تمر بين « التخت » متجهة إلى الفتاة ذات الغدائر ، فبادرت إلى تمزيق الرسالة ، متظاهرة بأنها كانت تجرب فى ورقة حل المسألة . . ولم تشعر بأسف بعد أن

تجاوزتها المعلمة . فإنها كانت تكتب لفتى القناطر ، وهى تعرف أن رسالتها لن تصل إليه . . فإن « أتوبيس » المدرسة يوم رحلة القناطر جمع البنات ، وانطلق بهن . . وظل ذلك المجهول يودع « الأتوبيس » بنظراته وهو لا يملك اللحاق به .

وقالت ذات الغدائر لنفسها ، وهى تنظر إلى الرسالة الممزقة : « إذا كان حبه كبيراً فسيبحث عنى حتى يجدنى ، سيمر يوماً بعد يوم بكل المدارس الثانوية ويفرز البنات . . وسأجد نفسى أمامه وجهاً لوجه ، وعند ذلك أتأكد أنه يستحق الحب . . ولن أحزن عند ذلك على رسالة ممزقة . . سأكتب له بدلا منها عشرات ، ولو مزق قلبى فسأقدمه له لكى يمزقه من جديد » .

وأخرجت ذات الغدائر منديلها ، ومسحت دمعة ادعت لنفسها أنها بسبب ناموسة تسللت إلى أهدابها . .

* * *

وعندما وصلت المعلمة إلى آخر الفصل كفت عن الحديث فتاتان كانتا « ترغيان » معاً . . وكانت إحداهما ذات شعر « أكرت » ملبد ، وأنف أحمر على الدوام بغير زكام ، وكان نهداها يسبقان سنها ، ويبدوان ، تحت المريلة ، كحبتين من جوز الهند الصلب . . أما الأخرى فقد كانت ممسوحة الصدر ، وحاجباها كانا كثيفين لم يلعب بهما الملقاط بعد ، وكان سوادهما الحالك يطل على عينين كبيرتين جداً كعيون البقر .

ولما ابتعدت المعلمة همست ذات الأنف الأحمر مكملة الحديث الذي انقطع : « .. واقترب منى فجأة ، وحاول أن يقبلنى فصفعته » .

وملأت الشفقة عينى البقرة ، وهمست وهى تقارن خلسة بين جوز الهند وبين صدرها الممسوح : « يالك من قاسية » !

ولم يخطر ببال « نوال » التى كانت تجلس خلفهما ، وتصغى لهمسات البنتين أن القبلة والصفعة محض خيال ، وأن زميلتها تكذب .. ذلك لأن القبلات فى حياة نوال كانت كثيرة ! ..

* * *

ودق الجرس ، جرس الدرس الأخير ، وتصاعد لغط البنات وهن يندفعن إلى باب الفصل ، وكأنهن حمام حبيس وجد ثغرة فى القفص .

ولكن نوال تلكأت . . فتحت درجها على مهل . . والتقطت مجلة ، ودستها بعناية فى حقيبتها بين كتبها ، وكأنها تخفى كنزاً .

وكان طريقها إلى المنزل هو طريق صاحبة الأنف الأحمر والأخرى ذات الصدر الممسوح ، فتريثتا فى آخر الطرقة الطويلة ، خارج الفصل ، فى انتظارها ، ثم ملتا الانتظار ، وقالت الأولى وهى تلف ذراعها حول خصر صاحبتها : « هيا بنا . . نوال تتهرب منا . . ألم تلاحظى ذلك . سبعة أيام الآن وهى لا تعود معنا » .

وقالت الثانية وهما تستأنفان السير : « ماذا تظنين السبب » ؟

وأجابتها صاحبة الأنف الأحمر وهى تبتسم بخبث : « السبب .. أظنه الحب » .

ونظرت صاحبة الصدر الممسوح إلى صاحبتها بلهفة واهتمام ، كما ينظر الحالم إلى مفسر الأحلام ، وسألتها هامسة : « هل تظنينها تغافلنا وتذهب لتقابله » ؟

وقالت العالمة ببواطن الأمور : « هذا أكيد . نوال خائنة . . أنا أقول لها كل شيء . وهي تخفي كل شيء . أليست هذه خيانة ؟ » .

وأجابت الأخرى في حنان وطيبة : « ربما كان الأمر في بدايته . . وفي نيتها أن تخبرنا عندما تتأكد » .

وقاطعتها ذات الأنف الأحمر ، وقد اشتدت حمرته من الانفعال : « أنت على نياتك . . نوال حويطة . لعلها تظن أني سأحسدها . هل أنا ناقصة معجبين . . لقد حكيت لك أن عندي ثلاثة يعبدونني . وأنت تعرفين أني صفعت أحدهم ، عندما حاول أن يقبلني ، مع أنه طيار » .

* * *

وضحك الربيع في كمه وهو يسمع السخط المندلع في الصوتين الناعمين . . وتذكر أنه نسي نوال في الفصل فعاد إليها . . ولكنه لم يجدها هناك .

كانت نوال قد وصلت إلى قلب المدينة ، ووقفت في شارع عدلي عند مدخل الممر التجاري . . ونظرت خلفها ، ولما أيقنت أن لا أحد يتبعها ولا عين ترقبها اقتحمت الممر ، وشقت طريقها في زحامه .

وبعد دقيقة كانت في شارع ٢٦ يوليو ، وتمهلت ريثما تلتقط أنفاسها وتأخذ حذرها من أخطار المرور ، ثم عبرت الشارع . . وتسمرت

أمام إحدى « فترينات » شيكوريل .

واتجهت نظرات نوال إلى فستان داخل « الفترينة » . .وكان هذا الفستان هو « الحبيب» الذي جاءت لتقابله .

منذ أسبوع وهى تهرب من صاحبتيها ، وتغير طريقها ، وتأتى إلى هنا لكى تقف أمام « الفترينة » . . وتتأمل الثوب . . كان ثوب سهرة أزرق كالسماء . .وتخيلت نفسها فيه ملفوفة فى سحابة رقيقة. . ولو رقصت به فلن يكون لها وزن ، ستغدو نغمة فى لحن طائر من ألحان الفالس .

لقد أحبت نوال الثوب ، من أول نظرة ، كما لم تحب شيئاً من قبل .

وأخفت نوال السر فى صدرها . . أشفقت أن تبوح به ، حتى لصاحبتيها لئلا تتهماها بالجنون . فقد كانت على الثوب بطاقة تعلن عن ثمنه خمسين جنيهاً و بضعة قروش .

فى أول مرة وقفت نوال أمام الثوب قالت لها البطاقة : « القروش أنا واثقة أنك تقدرين عليها. . ولكن الجنيهات الخمسين ! .. »

وهزت نوال رأسها بحسرة وانصرفت .

* * *

ومع ذلك عادت فى اليوم التالى إلى شارع ٢٦ يوليو . . ووقفت أمام الثوب . . واضطرت البطاقة أن تقول لها : « لماذا جئت؟ رحمة بك سأقسو عليك وأذكرك بأشياء . .قبل أن تنظرى إلى ثوب بخمسين جنيهاً انظرى فى الفصل إلى البنات من حولك . . ذات الأنف الأحمر دائماً أبوها سائق ترام ، وخديجة يكفلها زوج أمها « الساعاتى » ، ومرفت أمها

ممثلة فى المسرح الشعبى . . كلهن.. كلكن . . بنات بسيطات من أسر بسيطة . . بسيطة جدًا .. لا يا نوال .. لا تعودى إلى هنا.. حلمك خاسر عقيم. . أم أنك نسيت أن أمك. . تغسل فى البيوت ، وأنك من الشارع الضيق ؟

« تنكرين يا نوال أنك من هناك ، لأنك تسكنين مع أمك غرفة على سطح عمارة . .إنك واهمة. . إن الأسطح والبدرونات والأقبية هى امتداد لهذا الشارع .. وغرف الوصيفا ت الأنيقة فى القصور امتداد له ، هي والحانات التى تبيع الكأس والابتسامة ، والفنادق التى تؤجر الجسد والفراش. . كلها فروع من ذلك الشارع الضيق . . . »

وقالت نوال للبطاقة السليطة. . فى مرارة : « إنى لا أجهل القراءة وأعرف جيداً معنى الرقم الذى تحملينه . . وإنى لن أجد فى يدى خمسين جنيهاً أبداً — ومن أجل هذا أجيء متخفية ، أحاذر أن يرانى أحد ماذا يضيرك إذا نظرت إلى الثوب ؟ .. إنى قانعة بالنظر إليه .. وإن ذلك يصيبنى بحسرة لذيذة أرجوك ألا تحرمينى منها » .

* * *

وأخذت نوال تمضغ حسرتها وهى تجرّ قدميها إلى البيت. . إنها تعرف أنها جميلة . . كلما مشت فى الشارع الكبير التفت إلى الوراء الرجال الذين يتجاوزونها. .هذا يدل على أنهم كانوا يفحصون قوامها عندما كانوا خلفها ، ويقطع أن عودها نال منهم ، ومرآتها تؤكد لها أنها تستطيع بهذا الوجه الصبيح أن تسحر من تشاء . .

ولكنها تعرف أن سحرها مؤقت . . سرعان ما يزول . تعرف ذلك من حادثة حدثت لها .

فى مدخل العمارة كثيراً ما تقف فى انتظار المصعد الذى يحملها إلى السطح . العمارة مكونة من ثمانى طبقات . . ويتكاثر المنتظرون . وعندما يكونون من الرجال يقدمونها فى الركوب ، ويفتحون لها الباب . وقد لفت انتباهها منهم سيد مفرط فى الأدب ، ينحنى لها باحترام ، ويغض بصره إذا انفرد بها .. وقد قال لها مرة معتذراً وهو يهم بإطفاء سيجارته : « هل تضايقك رائحة السيجارة يا آنسة ؟ » .

وإنها لتعرف السر فى هذا الاحترام .. إنه يعتقد ، والآخرون معه ، أنها من أسرة تشغل إحدى الشقق الفخمة فى العمارة . وتحت مريلة المدرسة تتساوى بنت الباشا وبنت امرأة .. تغسل فى البيوت !

إن ذلك السيد يطفىء من أجلها السيجارة . . لم يجر فى باله أن ثوبها تحت المريلة هبة من أسرة تعطف على أمها ، وأن ملابسها الداخلية حافلة بالثقوب . . وأنها لو لم تكن مشدودة الصدر لما وجدت « السوتيان » الذى يحمل عنها عبء نهديها .

ثم جاء مساء مشئوم وقفت فيه نوال تنتظر المصعد هى والسيد الأنيق . وإذا بواب العمارة يندفع نحوها صائحاً : « نسيت أن أخبر أمك . قولى لها عندها غسيل غداً فى المنزل رقم ٧ فى شارعنا » . .

وأحست نوال أن الأرض تميد بها ، وفتح لها السيد الأنيق باب المصعد لكى تتقدمه فى الدخول . لكنها أيقنت أنه فعل ذلك ساخراً . .

وأحست أن قلبها يهبط والمصعد يرتفع . يهبط إلى قرار سحيق من الهوان تحت نظرته الضاحكة الفاحصة .. إنه هذه المرة لا يغضّ عنها بصره ولا يسرف فى الأدب. . وليلتها لم تنم . . عاف النوم أهدابها المبللة ، وجفل من غيظها. . إن تظاهرها بأنها إحدى ساكنات الشقق ذهب سدًى .. وعبثاً منعت أمها من أن تغسل فى هذه العمارة .. لقد وضح الخفاء . .ونظرت من سريرها إلى أمها التى أعطتها السرير وقنعت بحصير على الأرض ، وقالت فى سرها : « مسكينة أنت يا أمى . تجنبت دائماً أن أمشى معك فى الطريق.. حرصت ألا يعرف أحد أن لى بك صلة.. تكبرت عليك ، وقد نلت الليلة جزائى ..

ومضت الأيام .. وتمنت ألا يجمعها المصعد بالسيد الأنيق، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه. . سرعان ما فوجئت به ذات ليلة ، يفتح لها باب المصعد فى أدبه القاتل لكى تتقدمه.. وأطاعته.. وعندما بدأ المصعد يرتفع ، وكانا وحدهما ، رفعت عينيها إلى وجهه ، وإذا عليه ابتسامة خبيثة. . وإذا هو يعلق المصعد بين طابقين ويأخذها بين ذراعيه ويقبلها .

وتمنت أن تصرخ ، ولكنها لم تفعل. وشل إرادتها صوته الآمر وهو يهمس : « أنا معجب بك من زمان . هل يغضبك أنى أحبك » .. ووصلت هذه العبارة إلى سمعها وكأنه يقول لها : « لا فضائح . إذا تكلمت عرف الكل أنك ابنة الغسالة . . قبلاتى هى ثمن السكوت » ..

وعندما وصلت إلى حجرتها تذكرت أنها سمعت كلمة « الحب »

وابتسمت بمرارة . .لقد شمت من الخمر التى هبت عليها مع أنفاسه اللاهثة رائحة حبه. . وفطنت أنه ذلك النوع من الحب الذى يستحى من فتاة الأسرة ، ويجترئ على ابنة الغسالة ، حتى ليعاق المصعد بين طابقين . . .

* * *

ومنذ تلك الليلة لم يتورع عن تقبيلها كلما حانت الفرصة. . وفى كل مرة كان يقول لها فى لوعة ولهفة : « إلى متى ترفضين هداياى ؟ . إلى متى تبقين على عنادك ولا تزورين شقتى . الظروف فى خدمتنا. . أمك لن تدرى من الأمر شيئاً. . لن يشعر بنا أحد . . إنها مغامرة فى منتهى الأمان . .إذا فعلت ذلك مرة أعطيتك حياتى » .

مر كل هذا فى بال نوال وهى تبتعد عن شارع ٢٦يوليو ، وتدير ظهرها للثوب فى « الفترينة » . ولكنها فى ظلام الحجرة رأته أمامها . . رأته أمامها فى كفة . . وفى الكفة الأخرى رأت السيد الأنيق يقول لها باسماً: « إنها مغامرة فى منتهى الأمان . . إذا أقدمت عليها أعطيتك حياتى » .

وأدارت وجهها إلى الحائط ، وقالت لنفسها بشفتين جافتين :
« أى أمان ؟ ! أنا أهذى ! » .

* * *

ومع ذلك ضبطت نفسها فى اليوم التالى واقفة أمام « الفترينة » تحدق فى الثوب ، ثم اكتشفت نفسها داخل شيكوريل تطلب من البائعة المختصة أن تقيسه .

وقالت لها البائعة وقد جاءت به من الفترينة : « ليس عندنا سواه . استيراد الفساتين من الخارج صعب ونادر جداً الآن . يكون من حظلك لو جاء على قدك . يا سلام ! . . كأنه مفصل خصيصاً لك . نصيحة لا ترددى واكسبيه . إن من يراك فيه يقول إنك . ملكة » .

وأطالت نوال النظر فى المرآة .. وراحت أمامها وجاءت . . وتأملت نفسها من أمام ومن خلف ، ثم قالت للبائعة وهى تصطنع الفتور : « سأفكر » .

وقالت لها البائعة فى لطف وهى تودعها : « أتمنى أن يكون من نصيبك » .

* * *

وفى منتصف تلك الليلة تسللت نوال إلى حجرة السطح عائدة من شقة السيد الأنيق .. وأيقنت أن أمها التى تنام نصف ميتة من الإنهاك لم تشعر بدخولها كما لم تشعر بخروجها .

وتمددت نوال فى فراشها ، وأدارت وجهها إلى الحائط ، وانسابت دموعها فى صمت .

وقالت الدموع : « فى حقيبتى ثمن الثوب . ولكن المغامرة لم تكن فى منتهى الأمان كما زعم . سامحينى يا أماه . . إنه ليس مجرد ثوب سهرة . إنه جواز المرور من الشارع الضيق إلى حياة جديدة . إننى أقرأ فى المجلات الفنية قصصاً عجيبة . ثوب جميل ، وقوام رشيق ، وقد يبتسم الحظ .. قد يبتسم فى مسابقة جمال . وقد يبتسم من بين سطور

إعلان عن طلب وجوه جديدة . .وقد يبتسم من بين الأسنان المنفسحة
فى فم منتج كريه الشكل .. إن مرفت ، ابنة الممثلة فى فصلى ، وقد
أخفيت عنك أنها علمتنى الرقص ، وألقت على بعض المحاضرات ، ثم
قالت لى : عليك الباقى . أغاضبة أنت يا أماه ؟ . . إن الأمر ليس
مفجعاً كما تظنين . . كثيرات من معبودات الجماهير بدأن هكذا . .
والمجتمع الآن ينحنى لهن ، والشعوب تصفق ، والرجال الشرفاء يلثمون
أيديهن ، أنا واثقة يا أماه أن هذا الثوب بالذات سيجعل الوصول سريعاً ..
أنت لم تسمعى البائعة وهى تقول لى : « إنى أبدو فيه كملكة . »

* * *

وفى طريق نوال إلى شيكوريل ، كان خيال الثوب يكفكف فى قلبها
بقية من دموع .

وكانت أول من دخل المتجر عند فتح الأبواب .

وقالت لها البائعة وفى صوتها أسف : « بيع الثوب يا سيدتى » .

* * *

وترنحت نوال قليلا .

ثم نسبت ذلك إلى أنها لم تتناول إفطارها .

وتذكرت أنها قريبة من الممر التجارى ، وأنها تستطيع أن تأكل
هناك .

وابتسم لها رجال كثيرون وطبق الحلوى تحت ذقنها ، ولم ترفض
ابتسامتهم . .

ولماذا ترفض ؟ . .إنها تعرف أنها سلكت الممر التجارى بالأمس ، قبيل منتصف الليل . . وأن عليها أن تواصل السير فيه . . بعيداً بعيداً عن الشارع الضيق . .

المصباح الأعشى



كان ذلك المصباح من مصابيح الشارع محسوداً من زملائه ، فإن موقعه ، عند مدخل جسر قصر النيل ، كان موقعاً ممتازاً . إنه يستطيع أن يرسل البصر فيرى « سراى » وزارة الخارجية وما يجاورها من مبان أنيقة ، وعلى مقربة حدائق قصر النيل ، والميدان الشائق المترامى الأطراف ، وإلى يمينه السبعان العجوزان يطرحان وراء هما تلك القنطرة الهائلة التى تتمطى بكبرياء فوق النهر ، النيل العظيم أبو الأرض الطيبة .. أى جوار كريم !

منذ عشر سنوات يقف ذلك المصباح وقفته الرشيقة . وإلى أعوام قليلة كان سعيداً ، ولم يتعب ، ولم تدركه السآمة .. حسبه أن يدير البصر حوله ليتسلى . . كانت قامته العالية تمكنه من رؤية الكثير . . الشبان الذين يحلو لهم التلكؤ فوق « الكوبرى » ، والأمهات السعيدات يدفعن أمامهن عربات الأطفال ، والطلبة فى موسم الامتحانات تنشد وجوههم المتصببة عناء النسمات الندية ، والسيارات ، وعربات الركوب تسير مسرعة أو على مهل ، وتختبئ فى جوفها أشياء تسر . . أو تسوء !

وكان ذلك المصباح يحكى لجيرانه من المصابيح عن تنهدات التاعسات ، ويقص عليها قصص الفتيات اللائى ألح عليهن الندم فجئن يراودن الموج عن



(٦)

حياتهن ، منهن من جازفت وباتت فى ضيافة عرائس الماء ، ومنهن من تنتظر !

والمصابيح تتناقل الأخبار ولذلك فإنه أيضاً كان يسمع الكثير ، ويلم بما يدور فى الأزقة البعيدة . .

* * *

وعندما أعلنت الحرب العظمى الثانية منذ أعوام التقطت المصابيح النبأ من لغط المارة وتساءلت ترى ماهى الحرب ؟.. وما سر هذه الصفرة على الوجوه؟ وما صلة الحرب بهذا العتاد الذى يتدفق ، وبهذا السيل من الرجال المقبل من كافة أنحاء المعمورة ؟ .. ومم يخاف الناس ؟ ولم يقلقون ويشفقون ؟ ..

ومضت الأيام .. ودخل نقاش المصابيح نبأ جديد أخذت تهامس به وهى ترتعش .. إن مرضاً بغيضاً أتى فى أعقاب الحرب يصيب المصابيح بشر ما يمكن أن تصاب به . . يصيبها . . بالعمى .

* * *

ولم ينج المصباح الواقف عند مدخل « كوبرى » قصر النيل من هذه الآفة الوافدة . .جاء مساء فإذا هو ضرير قد نسجت على بصره غشاوة زرقاء حالكة الزرقة .

انتظر المصباح المسكين الشفاء عبثاً . ثم أيقن أنه صار رهين محبسه وأن الغمة لن تنجلى . فبدأ يتجمل بالصبر ، ويبتكر لنفسه من أسباب التلهى ما يبتكره المكفوف ليستعين به على آفته ويقهر عجزه . . وتعلم سريعاً أن يرى بسمعه . إنه ليميز بين الوقع الغليظ لأحذية الجنود وسير

القطا . ومرت به لغات ولهجات مختلفة . إن مصر أصبحت كبرج بابل . وبدأ يجد جواب السؤال الذى طالما حيره : « ما هى الحرب » ! ؟

إذن فهذه هى الحرب . . إنها المصابيح الضريرة . .وصفارات الإنذار تولول فى الليل . . والذعر يمنى به الناس وهم يسرعون إلى المخابئ وإنها رائحة الخمر تلوث نسيم النيل وأغانى السكارى تجرح هدوء الليل . . وإنها ضحكات الفتيات اللاتى أحببن الظلام وضللن الطريق .

رأى المصباح بسمعه كل هذا ، وحزن فى قلبه . . ولكنه عجز عن رؤية الأشياء التى لا صوت لها . النجوم التى كان يتيه كبراً عليها ويعيرها ساخراً من نورها الصغير الشاحب ، أما تزال حيث كانت أم أن القنابل وثبت عليها وطردتها من السماء ؟ . . والقوارب الحالمة التى تنزلق فى صمت وسكون على صدر الماء ، أما تزال تحلم ؟ . وخضرة الوادى . . ولون الزهر . . والوجوه التى تتصبب شقاء ، وتنحنى على النهر من فوق « الكوبرى » لتنظر إلى الماء بعيون مظلمة تنحدر منها الدموع البائسة . . والسبعان العجوزان هل زادتهما الحرب هرماً على هرم وكآبة فوق كآبة ؟ . .ماذا دهى كل هذه الأشياء الحبيبة يا ترى ! . . كم هو مشوق أن يعرف !

* * *

ولكن شيئاً واحداً اشتد حنينه إليه أكثر من سواه . .فتاة صغيرة . . فى السادسة عشرة أو أزيد قليلا . . كانت تأتى فى الماضى وتجلس على الأرض وتسند ظهرها إلى ساقه الطويلة . . فتاة من بائعات « اليانصيب » تمضى فى الطواف بالطرقات لتبيع أوراق البخت . . وآخر النهار تتهالك

إلى جواره وقد أنهكها التعب فتعد قروشها وتحسب لنفسها ربح يومها وتمدّ يدها للمارة بما تبقى من أوراق وهى تتثاءب وتتراخى وكأنها واثقة أنها ستتخلص سريعاً من بضاعتها. إنها تعتمد على كلمات سحرية لها فى المتنزهين فعل التعويذة . إذا مر بها شاب وفتاة فحسبها أن تقول : « خد ورقة ربنا يخليلك الست » . أما إن كانت الفتاة تمشي وحيدة كاسفة فإن العبارة تتغير قليلا : « ربنا ينولك اللي فى بالك يا عروسة » .

وعندما تنفض يديها من أوراقها يكون كفاح يومها قد انتهى ، فتفرغ إلى مراقبة المتنزهين بعينين كسولين يملؤهما النعاس . إنها تحب ثيابهم الجميلة ، وتحب المركبات التى تجرها الخيول ، حبًّا فاتراً ، حلواً من الحسد والطمع ، فقد علمها الواقع ألاّ تحلم بالمستحيل !

* * *

كان المصباح مولعاً . « بفتحية » ، وكان يشوقه كثيراً أن يلقى نوره على محياها ! فقد كانت جميلة . وكان شيء ما يتسرب فى سائر كيانها ويلقى الشفقة فى نفسه . شيء كأنه التعب يتغلغل فى وجهها الأبيض الشاحب ، وفى شعرها الفاحم المترب ، وفى أصابعها المعروقة الصفراء . . تعب يلف جسدها كله أكثر مما يلفه ثوبها القذر ، الممزق فى أكثر من موضع . .

وكان المصباح معجباً أيضاً بصوتها . . إنها تستطيع أن تغنى . وأى غناء . ذلك « التعب » يسقى النغمة الطروب فتستحيل بين شفتيها نغمة قلقة ، مضطربة ، حلوة ومرّة معاً ، فيها الهناءة والشقاء ، والحنين

البكر الذى يملأ قلب العذراء !

إن الحياة لم تفض غلاف قلبها . . كانت غريزة الطهارة الساذجة ملء إهابها ، يتحككك بها غلمان الشارع فتدفع عن نفسها ، وتخرج لسانها للقول المعسول !

ذات ليلة كان المصباح مستيقظاً يرقب نومها المتقطع ، فرأى رجلا يقترب منها ، ويقبض على ساعدها بيد من حديد ، وهو يحدثها حديثاً خسيساً فظنها فى خطر ، وإذا هى تعض اليد الآثمة ، وتفر لتنجو . . ظل المصباح يرقبها وهى تعدو حتى وقفت تلهث فى الميدان . وكم كان فخوراً بها . . من علمها ما يليق وما لا يليق ؟ . .لا أحد ! . . إن فطرتها هى التى ترعاها . . فطرتها ودعاء أمها الذى يطن فى أذنيها دائماً : « ربنا يا بنتى يكفيك شر أولاد الحرام » .

* * *

مرات قليلة جاءت فتحية وجلست تحت المصباح الأعمى . فحكى لها عما دهاه ، ورقت له وواسته ، وأنس مرات بصوتها المتعب الحنون ، ثم انقطعت عن الحضور . .وانتظرها عبثاً .

أربعة أعوام مضت الآن بدون أن تعود . . ولكنه لم ينسها قط . . طالما تاق إليها . . طالما سأل نفسه : أين هى يا ترى ؟ هل سافرت إلى أرض بعيدة ؟ هل ماتت ؟ أو أنها نسيته غير حافلة ، لأن وفاءها من وفاء بنى الإنسان ؟

* * *

وذات ليلة حدثت المعجزة . .تلفت المصباح وإذا بصره قد رد إليه وإذا هو يرى الأشجار والنهر والطريق. . وإخوانه المصابيح . .

وكل المصابيح أيضاً تبصر . . ارتفع المرض البغيض الوافد ، والغشاوة الثقيلة الزرقاء مسحتها عن العيون يد منعمة . .

وعرفت المصابيح سر نجاتها . . إن الحرب يتقلص ظلها وينحسر . . وانطلق نورها يزغرد فى كل مكان . فإنه لا توجد فرحة فى الدنيا تساوى فرحة من يستطيع أن يهتف « كنت أعمى والآن أبصر ! » .

ولكن مصباح قصر النيل ظل وحده كئيباً كاسف البال ، فإنه رأى كل الأشياء إلا الشىء الذى كان يتوق أن يراه قبل سواه. إن « فتحية » لم تظهر . عبثاً انتظر . .عبثاً سهر كل ليلة حتى الصباح . .باطلا أرسل بصره إلى آخر مداه !

وانتابه شوق ملح . . وأرهق قلبه تساؤل لا ينقضى : « هل سافرت إلى أرض بعيدة ؟ هل ماتت ؟ أما تعود أبداً ؟ ! . . » .

* * *

وعندما وقفت تحته ، فى منتصف ليلة ، حسناء هيفاء أنيقة لم يأبه لها . . ماله والأنيقات الناعمات ! . . إن حنينه لفتحية . . فتحية وحدها بائعة البخت . .ذات القدمين العاريتين والوجه الذى ينضح تعباً .

ولكنه لم يملك نفسه من العجب عندما رأى الشابة الحسناء تنهار إلى الأرض عند قاعدته ، وتدفن رأسها بين ركبتيها وتنتحب بحرقة .

ولما استوفت حاجتها من البكاء نهضت ، وتطلعت إليه ، فرأى

وجهها ، ووجد تحت الدموع التى تملأ عينيها نظرة حزينة تسأله : « أما تعرفنى ؟ أنا فتحية ! » .

فتحية . بأصباغ ومساحيق ، وثوب أنيق ، وجوارب حريرية . أين الشعر المترب ، والأظافر الملوثة ، والقدمان العاريتان ؟ . . أين الثوب الممزق ، وورقات البخت ترتجف فى يد هزيلة معروقة ؟ . .

قالت له متضاحكة : « كيف حالك أيها الصديق ؟ » .

كان يبدو فى صوتها أنها تزيف المرح . أنها خجلة منه خجلا دفعها إلى الإطراق وإلى البحث عن شىء تتشاغل به ، ففتحت حقيبة يدها وأشعلت سيجارة أمريكية من ولاعة ثمينة ! . .

ورمق بداخل الحقيبة قبل أن تقفلها كثيراً من أوراق النقد .

وبدأ يفهم . .

إنها الحرب إذن . .

وسألها متغابياً : « من أين لك هذا ؟ » .

فصمتت ولم تجب . .

وأحرقت قلبه نار جعلته يقول : « كنت فخوراً بك . لقد عضضت مرة يد رجل لتتخلصى منه ! »

رفعت نحوه وجهها المكفهر متوسلة : « ولكن أمى ماتت . وكفت عن الدعاء لى . . لم يعد أحد يطلب من الله أن يكفينى شر أولاد الحرام ! »

وأكملت اعتذارها بشفتين ترتجفان : « فى الماضى كنت أنظر إلى

الثياب والحلى نظرى إلى المستحيل . . لكن فى هذه الأيام . . المستحيل أصبح ممكناً ! » .

ولم يحتمل دموعها التى بدأت تنحدر فى صمت ، فقال لها بصوت جاف : « كفى . . لا تبكى » .

وفرحت بشفقته ، فوثبت على ثغرها ابتسامتها الساذجة وهى تسأله « انظر إلىّ . . أما أبدو فاتنة هكذا ؟ » .

جاء دوره فى الصمت !

فاتنة ؟ . . كلا . . كانت أكثر فتنة فى ثوبها الممزق . . وأحس ألماً موجعاً ، لأنه لا يستطيع بعد أن يحبها ، فإنه الآن يعرف ما هى وقد انتهت الحيرة . . لم يعد فى وسعه أن يسأل نفسه ؛ أماتت ؟ أسافرت إلى أرض بعيدة ؟ . الآن هذا العزاء بعيد المنال ، ولا حيرة ، بل الحقيقة العارية القاسية . إنه فقد فتحية . . أما هذه الأخرى فلا يريد أن يعرفها!

وأخرجه من وجومه صوتها : « أحسست بحاجة شديدة إلى أن ألف ذراعى حولك ، فجئت إليك . جئت أعانقك وأسألك . . أتعرف أين قلبى . إنه ضاع منى ، ولست أدرى أين فقدته ؟ ! »

* * *

وفى تلك اللحظة مر أحد جنود « الحلفاء » فبادلته فتحية كلمات قليلة متعثرة ، بلغة لم يفهمها المصباح ، ولكنه فهم مدلولها . .

ولما اقترب الرجل منها ، ووضع يده على كتفها ، لم تنفر ولم تكفهر ، واختلط ضحكهما ، واتجها إلى « الكوبرى » جنباً إلى جنب فى غير كلفة .

والتفتت فتحية إلى الوراء فجأة ، لتقول للصديق وهى تبتسم كالمعتذرة :
« سأمر بك فى وقت آخر ! » .

ولكنه عبس وصاح : « لا . . لا أريد أن أراك » ! .

* * *

والتفت المصباح إلى السبع الواقف بجواره ، وبادله نظرة حزينة . .

قال السبع فى كآبة : « هون على نفسك أيها الصديق ، إنها لم تفعل ذلك وحدها . . كل مثيلاتها . . » .

وقاطعه المصباح المتفع : « ليتهن بقين بائعات يانصيب ، ليتهن بقين شريدات معدمات ! » .

وأجاب السبع : « ولكنها الحرب أيها الصديق ! »

* * *

ولكنها الحرب . .

وأحس المصباح أن هذه الكلمة تطعنه فى قلبه . وأحس فى جوفه ناراً تتلظى غضباً وحقداً .

وأحس أنه يكره نفسه .

واشتهى المصباح النقاب الأزرق يسدل على وجهه من جديد .

إنه لا يريد أن يبصر . . إنه يود أن يرتد . . أعمى !

السّاق المقطوعة



كنت أراه مرتين كل يوم مرة فى الصباح وأنا ذاهب إلى عملى ، ومرة فى الليل وأنا آيب إلى بيتى .

كنت أراه ملقى على الرصيف يمد يده للسؤال كلما مر به عابر سبيل ، وإلى جواره ساقه الصناعية ، فكها من رباطها عند أعلى ساقه ومددها على الرصيف لتعترض الأبصار وتكره القلوب على الشفقة .

ولكن طريقة عرضه لعاهته كانت تثير الاشمئزاز أكثر مما تثير الشفقة فقد كان يكشف ثوبه القذر عن فخذه المبتورة ، فتصطدم العين بلحمه الشائه الممزق . وفى الصباح حين كنت أرى هذا المنظر كنت أحس أن إفطارى لا يكاد يستقر فى معدتى ، وفى الليل كانت صورة الساق المبتورة تلازم خيالى وتدخل أحياناً أحلامى .

ولم يكن يبدو أنه جاوز الستين ، لكن كان جلياً أن الحياة قد نفضت يدها منه ، وبغضته بغضاً شديداً ، وأغرت به أكثر من مرض مميت . إنه يلهث طول الوقت ، لأن السعال لا يدع له دقائق قليلة يلتقط فيها أنفاسه ، وإن وجهه المتقع تترقرق فيه تلك الصفرة القاتمة التى نراها فى وجوه الهالكين الذين صرعتهم العلة واخترمهم الداء الوبيل .

وياله من وجه قبيح ! . إن الدمامة قد أعلنت فى قسماته أبشع آياتها . وكم كنت أرى الأطفال الذاهبين إلى مدارسهم فى البكور

لا يكادون يقتربون من مكانه المختار حتى يعبروا الشارع وينتقلوا إلى الرصيف الآخر ، ثم يخالسوه – عندما يجتازون مقابله – نظرات فيها كثير من الذعر ، وكم رأيت رجالا يفرون بأبصارهم بعيداً عندما يمرون به . .

وكنت ألاحظ ذلك ، لأنى كنت لا أنفك أنظر إلى قبحه وشحوبه وعاهته .. وقد حاولت مراراً أن أشيح ببصرى عنه ، لكن شيئاً فى أعماقى كان يقاومنى .

ماذا كان ذلك الشىء ؟ . لست أدرى على وجه التحديد ، لعلى كنت أتوقع دائماً ألا أراه ، ولعل سبب نظرى إليه عجبى من أنه مايزال فى مكانه حياً يرزق . كنت أقول كل يوم لنفسى وأنا أدخل ذلك الشارع الذى يرابط فيه : « لن أراه اليوم . . إن أحد أمراضه قد بغته وأسلمه إلى الموت » .

لكنى كنت أتطلع فإذا هو قد أتى مرة أخرى . أتى يجر شقاءه ، ويجلس فى إعياء ليفك رباط ساقه الصناعية ويمدها إلى جواره لتعرّض السابلة .

ستة أشهر وأنا أتوقع له الموت كل يوم . وقد ضجرت وأصبحت « أريد » له الموت !

وكم حنقت على نفسى ولمتها بسبب قسوتى . كيف أطلب الموت وأتمناه لرجل حى ؟ . من أين لى هذا الفؤاد الحقود ؟ . ألمجرد أنى أتوقع له الموت أنقم عليه لأنه لم ينفذ رغبتى ولم يمت ؟ أفظع بهذا ! ..

وبدأ ضميرى يراوغنى : « إنك لا تريد به شرًّا ، إنك تطلب له الرحمة والراحة ، الموت بالنسبة إليه هو النعمة الكبرى لأنه الخلاص من سقامه. . إنك لا تحب له أن يظل عبداً للعلة . . أن يظل جسده المهدم موثقاً بهذه الساق الصناعية الرخيصة الثقيلة . تتمنى له أن ينجو من نظرات الذين يحسنون إليه وهم يمقتونه ويلقون إليه بالنقود الصغيرة إلقاء، حذر أن تمس أناملهم كفه كما تلقى كسر الخبز للكلب الأجرب ! » .

ومع ذلك كان ضميرى بوجهين . كان يتسلل فى دروب نفسى ومنعطفاتها ، ليلتقى بى فى ناحية أخرى من الطريق ، وليظهر لى بسحنة جديدة ويهمس : « ولكنك تكره الرجل ، تكرهه كرهاً أصيلا ، أما كففت عن أن تحسن إليه ؟ أما تجيب نظراته المستعطفة بنظرة باردة ؟ أتعاقبه لأنه لم يمت ؟! » .

فكنت أجيب عن هذا الاتهام غاضباً : « كففت عن الإحسان إليه لأنه إنسان كسلان . . لأنه يستمرئ التسول . . لم لا يذهب إلى ملجأ ليستريح ؟! . »

ولكى أعزز دفاعى اقتربت مرة من شرطى المنطقة، وقلت له بجفاء: « إنك تهمل فى تأدية واجبك. . قانون التسول ينطبق على هذا الرجل فلماذا تغضى عنه ؟ . . إنه أولى الناس بملجأ العجزة » .

وقاطعنى الشرطى : « يا سيدى ، إنه لا يطيق الملجأ. . أخذناه مرة إلى هناك فألقى نفسه من فوق السطح . وفى المرة التالية ابتلع موسى . إنه لا يريد أن يهجر هذا الرصيف . دعه يا سيدى إنه غلبان . وقاك

الله عاء الغلبان ! » .

قضيت عنه وأنا أتنفس الصعداء . . لقد كنت على حق . . إنه يرفض الحياة فى الملجأ ، لأنه مولع بالاستجداء . وقد كنت على صواب فى أننى كرهته . وأنا إذن غير ملوم حين لا أعينه على التسول . وإنى لأستطيع الآن أن أقف فى وجه ضميرى وأمنعه من أن يعيّرنى .

* * *

ومضت الأيام وأنا أحاول عبثاً أن أتخلص من هذا الكره . وأعلنت لنفسى أننى أطلب له الموت . ولم أعد أستطيع أن أصرف ذهنى عن هذا الأمر . . كنت أمر بالشارع وأنا أنتظر أن تكون أمراض صاحب الساق المقطوعة قد أدت واجبها وأتمت عملها .

لكننى انتظرت عبثاً . وتعاقبت الأيام . إن الداء عاجز عن أن يدكّ هذا الطلل البالى . . ولكن الترام والسيارات تدوس الناس كل يوم فى القاهرة ، وتقضى على الأقوياء النافعين . فلم يغمض الردى ، الذى يتقمص ألف وسيلة ووسيلة من وسائل الهلاك ! عينيه عنه . . لكننى تخيلت دائماً أن هذا القضاء المرتجل سيحجم وسيبطئ كما أبطأ الموت الطبيعى .

فكم صدمت عندما رأيت ذات ليلة الموت وهو يبطش به بإحدى الطرائق التى مرت ببالى .

كان يعبر الشارع المعتم عند زاويته ، وإذا سيارة ضخمة من سيارات الجيش تقبل ، وقد حلا للسائق أن يطلقها بأقصى سرعتها فى الطريق

الخالى وإذا بخطوات الأعرج تضطرب ، وإذا ساقه الصناعية تخونه وتنزلق إلى الأرض .. ولم يستطع المسكين أن يسترد توازنه .. وانكفأ على وجهه وصرخ فى وجه السيارة قبل أن تمر فوقه صرخة حزينة ، مفعمة بالخوف والروع والهلع . . صرخة يتلظى فيها حبه للحياة ورهبته من الموت وإشفاقه من الألم والعذاب .

وضاعف السائق الهارب من جريمته سرعته ، ووجدت نفسى وجهاً لوجه أمام المسكين الذى طابت له الموت أكثر من مرة .. الساق الصناعية تهشمت . . والساق الأخرى بترت . . وعظمة الكتف سويت بالأرض وشرطى المنطقة يمشى على مهل ، النعاس عالق بجفنيه الثقيلين . . وسقط ضوء مصباحه على وجه المسكين فرأيت تلك الملامح التى طالما نفرت من النظر إليها غارقة فى الدم المختلط بالعرق المتصبب ، بغتت قلبى شفقة لا حد لها وأحسست كأن مخالب من الثلج تنشب فى أعصابى وأن ريح الليل الباردة تهمس فى أذنى : « إنك أحببت له أن يموت وتصورت له مصرعاً كهذا وقد تحقق ما تصورت . . فقر عينا . . إنه ضحيتك ! » .

وكم اضطربت نفسى . كنت كمن فتح عينه بغتة وإذا هو قاتل ! ورافقته عندما حمل إلى المستشفى .. أحسب أننى ما كنت لأصاب بأثقل مما أحسست به من الكآبة لو أننى كنت أنا الذى دهمته بسيارتى

وعندما سمعت أناته الخافتة المتقطعة تتساقط فى الظلام غمرنى الارتياح .. إنه إذن مايزال حياً . . فليته يعيش . . كم أريد أن يعيش لأتخلص من ذلك الشعور المرهق ، المسيطر على تفكيرى بأننى مسئول مع القدر عن موته ..

وسهرت ساعات إلى جواره ، أرقب بقاق بقية الحياة التى تتخبط فى جسده ، وأنظر إلى قسمات وجهه بلا ازدراء ، ونفسى تفيض حناناً . فلما فتح عينيه عند منتصف الليل مضى يجيلهما حوله ، ثم بدا لى كأن ذاكرته قد ردت إليه ، فإن الدموع فاضت على أجفانه التى لا أهداب لها ، ومد لى يده كأنه يستنجد بى من آلامه ، فأخذتها بين يدى مواسياً ونظر إلى جواره نظرة حائرة ردها إلىّ ليسألنى عن ساقه الصناعية . . يا للمسكين ! . . هل أقول له إن خشبها تهشم وتناثر فى الطريق ؟ . . هل أنبئه أن الأخرى قد بترت ، وأنه لم يعد بعد بحاجة إلى السيقان الصناعية ؟ إنه مايزال إذن واقعاً تحت تأثير ذلك الألم الأصم الذى يعقب العملية الجراحية والذى لا نشعر معه أن عضواً من أعضائنا قد فصل .

وطمأنته إن ثيابه وساقه محفوظة له أمانة فى المستشفى إلى أن تعود له عافيته فتنبه إلى أنه فى ثياب المرضى ، وسألنى بقاق عن بضعة قروش جمعها من كد نهاره ، وكانت فى جيبه .

وبدأ حديثه يتقطع ، لكنى فهمت بعضه . . طلب إلى أن أوصل تلك القروش إلى « حميدة » فإنها بحاجة إليها . وربما يموت فلا تحصل على هذه القروش . . إن « حميدة » هى زوجة ابنه الفتى الذى مات فى ريعان شبابه ، وقد كان يحب أن يمضى بقية أيامه فى أحد الملاجئ لكن من كان ينفق على « حميدة » ؟ . . ومن أين كانت تعيش ؟ . . كان يخاف إذا بقى فى الملجأ أن تتزوج فتى يحظى بها بديلا من ابنه الميت ولذلك لم يتردد فى أن يقفز من أعلى سطح الملجأ وهو

بساق واحدة ليكون إلى جوارها ويمنحها النقود التى يستجديها لكى تكف عن التفكير فى الزواج . .

وبدأ يصف لى الحارة التى تسكن فيها الفتاة! فإننى وعدته أن أوصل إليها تلك القروش التى جمعها من كد نهاره . لكنه لم يتم وصفه ، وخارت قواه ، واضطرب الكلام بين شفتيه ، ثم شل لسانه فى فمه. .

كانت إذن صحوة الموت فإن الطبيب جاء وجس نبضه . . ثم غادر الحجرة يمر بالمرضى الآخرين بعد أن أومأ إلى أن المسكين يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وفتح صاحب الساق المقطوعة عينيه بغتة ، وفى سكرة الموت مد لى كفه مستعطفاً كما كان يفعل مع المارة وهو جالس على الرصيف .

وبحثت فى جيبى بلهفة فوجدت قرشاً وضعته فى اليد الممدودة .

لكنه لم يستطع أن يطبق عليه أصابعه. .

خذله الموت . .

وعندما خرجت إلى الطريق بكيت فى هدوء الليل كما لم أبك من قبل فى حياتى .

وقد مضى على هذا الحادث أشهر لكننى ما أزال أرهب المرور بالشارع الذى كان المسكين ينتظر فيه الإحسان .

فى الماضى لم أكن أحب أن أراه جالساً فى مكانه. . لكننى الآن أكره أن أجد مكانه خالياً. . وكثيراً ما أفاجأ به جالساً فى ذاكرتى ، وفى يده الممدودة للسؤال أصابع اتهام تشير إلى وتنادى : « هذا قاتل . . لا تدعوه يفلت » .

لا حياة تافهة !!



« يبدو أنك صائم . .هل تضايقك رائحة الدخان» ؟ وأجاب الشاب الرجل الذى بدأ يدخن : « لا . أبداً» .. وكان الرجل والشاب جالسين على مقعد فى محطة ينتظران المترو ، وقام الرجل المفطر وجعل يمشى على الرصيف إمعاناً فى الأدب ، وإشفاقاً على جاره من رائحة التبغ .

وبعد لحظة قام الشاب فى أثره . كان يريد أن يقول له : « نعم ، أنا صائم . .ولكن لوجه الفقر . منذ يومين لم أذق طعاماً . أنا جائع حتى الموت » .

ولكنه عندما وصل إلى الرجل هربت منه الكلمات . ووجد نفسه يسأل المدخن عن الوقت .

وأجابه الرجل وهو ينظر إلى ساعته : « باقى ساعة على المدفع . هانت . ولم يحفل « حسن » بالتعليق . . كان كل همه أن يبتعد بارتباكه فقد كانت هذه أول محاولة له فى عالم التسول ، وقد باءت بالإخفاق .

هل كان يجرى ؟ . هل كان يمشى على مهل ؟ . . لم يستطع أن يتذكر حتى وجد نفسه فى شارع ٢٦ يوليو .

وسأل نفسه إلى أين ؟ إنه جلس فى محطة المترو لأن الجلوس فيها بلا مقابل . . ثم تذكر فجأة أنه يستطيع أن ينهار على كرسى فى مقهى ورمضان كريم . .

ولكن « الجرسون » مضى يحوم حوله . . وخال أن فى عينيه نظرة

المحقق الذى يرتاب فى متهم . .إنه يريد أن يقوله له : « أنت لست زبوناً هنا . أنت تلقيحة. . وصيامك كاذب » .

ياللوقح . ألا يرى شفتيه الجافتين . وشحوبه . . وارتجاف يديه ؟ وأشد قحة من « الجرسون » هذا المتسول الذى وقف أمامه وانطلق يقول له فى إصرار وعناد : « حسنة. . الكريم لا يضام . أعطنى مما أعطاك الله » .

وتمنى حسن لو يستطيع أن يضحك عالياً. . ولكنه كان خائر القوى فقنع بابتسامة ضئيلة وهو يقول له : « ليس معى فكة » .

وفوجئ بالسائل يقول له : « أفك لك » .

وعند ذلك نهض الجائع وكأن شيطاناً تقمصه ، وأخذ يتلفت حوله وهو يصيح : « بينى وبينك البوليس » .

وابتعد المتسول وهو يغمغم باستياء أن القلوب خلت من الرحمة. . وجعل حسن يرقب عرجه الزائف وهو يبتعد . .وتمنى لو يلحق به ويقول له : « إنك اعترفت أن معك فكة. .أعطنى قرشاً. . ترفض . تصر أن أعطيك مما أعطانى الله ؟ . . فتشنى . .لم يعطنى شيئاً منذ شهرين . .منذ شهرين أنا عاطل » .

لا تسألنى كيف صرت عاطلا .. إنها قصة طويلة تتلخص فى كلمة واحدة أنها « لطّشت » والسلام . .والدنيا عندما « تلطش » معك يعرض عنك الأصدقاء . .والغرباء يغلظون لك فى القول ويقترحون عليك ببساطة أن تذهب إلى باب الحديد ، وتشتغل شيالا .

ليتنى أستطيع . ولكن العود هو أثقل شىء حملته فى حياتى . .

فأنا موسيقى حصلت على بعض النجاح فى الأفلام ، واعترفت الإذاعة بفنى . .ولكن هذا كان. . زمان ، قبل أن « تلطش » .

وهبنى ذهبت إلى المحطة وعرضت على الركاب خدماتى . هل تظن الحمالين يرحبون بزمالتى . أو أنهم «يلفعوننى» على أكتافهم ويلقون بى فى حوض الماء تحت أقدام رمسيس . .إننى كنت واقعياً. . لم ألجأ إلى رصيف القطار وباقى الأحلام الجميلة. . بل لجأت إلى « نقابتنا » وقد أعانتنى مرة ومرة .. ثم قيل لى بصراحة إن صندوق النقابة نفسه يتسول . وكبار الزملاء يساعدونك مرة ومرة . ثم تتحول الإعانة إلى بطاقة توصية لشركات السينما ، أو موظفى الإذاعة . وتقع البطاقة تحت عيون باردة وتتحرك شفاه فاترة لتقول لك: « سنرسل فى طلبك . . لا تكن عجولا . . هناك عشرات مثلك ينتظرون دورهم .. » .

وقد تقع النظرة الباردة على أصابعك الصفراء من التدخين ، وبدلتك الأنيقة . . وقد تحاول أن تدافع عن نفسك وتقول : « إننى لا أدخن منذ شهرين. . والبدلة من مخلفات المجد الذاهب ، وقد جعت ولم أبعها لكى أقابلكم بها ، ولا أبدو فى عيونكم وسخاً حتى يشجعكم هذا على إعطائى عملا » .

ولكن لا فائدة . لا فائدة . النظرة الباردة فى كل مكان . .إنها قاعدة ثابتة. . إذا كانت الدنيا مقبلة عليك ، وقلت إنك مشغول ، ألحوا عليك وتوسلوا إليك أن تسخو بموهبتك ، ولا تضن على عشاق فنك. أما إذا صرحت بأنك جائع فإنك تسقط فجأة من حالق وتتحول إلى فاشل

يحترف التعطل . ولا يهم أبداً أنك أنت فى الحالين نفس الإنسان .

ومع ذلك شاركتهم فى السخط على بدلتى الأنيقة ، يا سيدى المتسول وحملت نفسى إلى شارع متفرع من العتبة الخضراء . . هناك يشترون كل الأشياء المستعملة . يشترون جهاز الإرسال المتبقى من طائرة محطمة ويساومون على فردة حذاء أختها مفقودة . . وعندهم ساعات تملأ بالمفتاح وقباقيب انزلاق . وزجاجات فارغة من كل حجم . . وطرابيش مزخرفة بالقصب من أيام السلطان عبد الحميد . . حتى طقم أسنانك يشترونه منك إذا شئت . . ومع ذلك عندما خلعت الجاكتة الأنيقة داخل الدكان وأنا أرتجف من الخجل ، رفض التاجر مساومتى فى الصفقة ، وقال لى وشاربه الكث تسيل عليه ابتسامة مجرب : « يا صاحبى يفتح الله . . المخبرون منتشرون فى منطقتنا ، فابتعد من هنا » .

وحاولت أن أقنعه . . خذها بخمسين قرشاً . . بعشرين . . فقال وهو يربت على كتفى ويتحسس القماش فى الوقت نفسه : « صوف إنجليزى ، متره بعشرة جنيهات وتبيعها بقروش ؟ . . ألم أقل لك إنها مسروقة . . نصيحة انفد بجلدك » .

* * *

وأفاق حسن على صوت مدفع الإفطار . . فتبين أنه لم يلحق بالمتسول ليستجديه ، وأن المسألة كانت هواجس . . وفوجئ بالجرسون واقفاً أمامه كالمارد يسأله : « مظبوط وإلا زيادة ؟ » . فانبعث واقفاً ، وغمغم وهو منصرف : « سأفطر فى البيت » .

وركب المترو . ولم يخف أن يطالب بالتذكرة . فهذه الساعة هى ساعة المعدة ، وعندما يقول للكمسارى أبونيه لن يطلب منه إبرازه إلا إذا كان رذلا جدًّا .

* * *

وعندما وصل إلى البيت تمدد فى الفراش . .ودّ لو يستطيع أن يحمل الحشية ويبيعها . . ولكنها لم تكن ملكه . . لقد استأجر الشقة مفروشة أيام الرخاء . والبواب له بالمرصاد منذ توقف عن الدفع .

ولم يكن هناك نور ، بعد أن جاءت شركة النور ، وقطعت التيار . . ومن أسف أن الذاكرة تضىء فى الظلام وتسطع . وتمر فى وهجها الأيام الماضية . صاخبة متدافعة كأنها فى مظاهرة . .ولم ينقطع مرور الموكب أمامه . . كان له صاحبات أنفق عليهن ببذخ . .حيناً خف إلى غوث الملهوف . وأحياناً غلظ قلبه ، ورأى صفرة الجوع فى الوجوه فلم يعبأ . . كان قديساً . وكان فاسقاً . . عاش للنذالة وعاش للنجدة ، وكل هذا يتألق لعينيه الآن ، فى الظلام ، ويحاكمه ، ويجادله حتى ليصرخ : « كفى . كفى » .

وتذكر أن عنده فى البيت بقية شمعة . وأخذ يبحث عنها بلهفة فى الأدراج ، وبه أمل أن تدفع عنه الأشباح عندما تضىء . فى أثناء بحثه تمنى لو يجدها لا ليضيئها بل ليأكلها ويملأ بها بعض فراغ معدته .

ولكن يده المتخبطة فى الظلام عثرت فى أحد الأدراج بجسم بارد من الصلب . وعجب كيف نسى هذا المسدس . وتذكر كيف اشتراه

فى فورة حماسه بعد حريق القاهرة ، وكيف حمله وذهب مع بعض الرفاق إلى منطقة القناة .. ولكن الرفاق تركوه ، فى السويس فى حانة. . وعادوا إليه فى الفجر وبهم جراح تنزف ليجدوا رأسه تهوم فوق المائدة من ثقل الخمر ، ومن لحن نشيد ذاع بعد ذلك واشتهر :

وإنه ليجد الآن هذا المسدس المنسى وكأنه يجد كنزاً . أخيراً عثر على شىء يستطيع أن يبيعه ويأكله .

* * *

ووجد نفسه فى الطريق هو والليل والمشكلة. . وكانت المشكلة أن المسدس غير مرخص ، وبيعه علناً متعذر . والمهم أن يتحول حالا إلى طعام يسكت صراخ معدته .

وسمع وقع خطوات تقرع الطريق الساكن.. واستوقف الرجل الذى مرّ به ، وخرجت يده بالمسدس وهو يقول بارتباك :

ـــ هل تشترى هذا ؟

وقال الرجل بصوت قاتم : « إنها طريقة مبتكرة لبيع المسدسات فى الظلام والشارع مقفر . كن صريحاً وقل إنك تطلب محفظتى أو تطلق النار . ولكن اعلم أنى مسلح . مسلح » .

وفجأة أطلق الرجل ساقيه للريح وهو يصيح كالمحموم : « مسلح مسلح . الحقنى يا بوليس . .مسلح » .

وعرف حسن أن حدة الرجل وهو يخاطبه لم تكن شجاعة ، ولكنها

كانت عصبية الذعر . وكلمة « البوليس » أوحت إليه أن من الحكمة أن يجرى هو الآخر . .

* * *

وتهالك فوق السرير متلاحق الأنفاس . . إنها المحاولة الأخيرة وقد باءت بالإخفاق .. ولم يبق إلا الموت ، بلا مقاومة ، على هذا الفراش .

وأحس بالمسدس تحت جنبه وهو يتقلب . .وقال له السلاح : « لماذا تنتظر الموت . اذهب إليه وأنا أساعدك » .

وراقته الفكرة .

لماذا يؤجل الموت . المعركة مع الجوع مائعة . فعليه أن يحسمها ويستريح ، ويعفى الوجود من حياة تافهة . وتخيل نفسه وقد صار خبراً فى سطرين فى صحف الصباح ، مثل هذه الأخبار التى طالما قرأها عن منتحرين تخلصوا من هذا المصير ، وأحس بالغضب يتحرك فى نفسه ، وخرج إلى الشرفة وهو يخال من كثافة الظلام الذى يلفه أنه يتحرك فى أكفانه .

وسقط بصره على نافذة مضيئة عبر الشارع هناك رجل بدين يجلس وحده أمام مائدة حافلة . . دجاج وسمك وكتف خروف . . وأطباق أخرى عديدة يتصاعد منها البخار . . طعام يكفى عشرة . . الرجل يأكل بنهم ،ويصول ويجول بين الأطباق ، بأنامل توحى ، وهى تنطلق إلى فمه ، بأنه يرفض أن يشبع .

ووسوس فى أذنه شيطان الجوع : « لماذا لا تطلق عليه رصاصة

قبل أن تنتحر وجه إليه الدعوة إلى مائدتك . . مائدة الموت . . عند ذلك لن يكون نبأ انتحارك فى سطرين » . بل إن النبأ سينمو وتتفرع منه قصص بوليسية ، وعناوين مثيرة : لماذا أطلق الموسيقى النار على جاره ؟ هناك أسرار خطيرة وراء الحادث مندوبنا يؤكد أن هناك امرأة فى الطريق .

رجال البوليس سيقدحون زناد الفكر بحثاً عن حل اللغز . وفتيان الصحافة سيجدون متنفساً لطاقاتهم المختزنة . ولكن لن يصل أحد إلى الحقيقة البسيطة : إن تافهاً أراد اصطحاب تافه آخر ، يضع ذراعه ، فى ذراعه ويخرجان معاً من هذا العالم .

وراق حسناً وهو يراقب ضحيته أن الرجل غافل عما يترصده ، وأنه يفكر ناعم البال ، فى غده الذى لن يكون ، ويمضغ طعامه على مهل.. ووضع يده على الزناد وهو يغمغم : « أنا قضاؤك ، وبعد لحظة ستكف عن الأكل إلى الأبد . سيوفر العالم كميات الطعام التى تستهلكها بلا مسوغ وستنجاب عنه التفاهة التى تمثلها ، وهو الرابح فى الحالين . . وبدأ يصوب والرجل يتناول الحلو . ثم تريث وقال لنفسه : « مهلا . . لا بأس أن يتناول عشاءه الأخير كاملا » .

وبعد أن مسح الأكول طبق المهلبية . . نظر إلى أسفل المائدة ، فوثبت إلى سطحها ثلاث قطيطات بيض بدأ يسكب لها اللبن فى طبق .

وتذكر حسن القطط ، وأن هذه قصتها مع الرجل صباح مساء . .

وكانت القطط فى طور الطفولة . . وكانت تحب سيدها وتلعق اللبن

مرة ، ويده مرة . . وتذكر حسن أن أمهن لم تعد تظهر . لعلها هجرتهن وتركتهن يتيمات ، وأحس حسن أن شيئاً يلدغ قلبه . .وحاول أن يسميه لنفسه . . ورجح أن الشفقة على القطط لا على الرجل . . وكره أن يأتى الغد وليست لهن يد يلعقنها مع اللبن . .وخال كأن الجوع الذى يكابده جوعهن القادم لا جوعه الحاضر .. وأن الصخب المعربد فى قلبه هو صوتهن وهن ضالات فى الطريق بلا مأوى . وبدأت قبضته تتخاذل عن المسدس ، ووجد فى أعماقه دوى صوت يهيب به : « هذه الحياة التى تريد أن تأخذها معك ليست تافهة بالقدر الذى تظن . . إن فيها على الأقل نفعاً لهذه المخلوقات الضعيفة . . أنت الذى لا نفع منه . . اذهب وحدك » .

وهزأ من هذا الصوت الذى يتحرك فى داخله وقال فى عناد : « لا . لن أذهب وحدى . لقد وقع عليه اختيارى . وسآخذه معى فى الطريق الموحش » .

* * *

وتدخل فى الموقف حادث وقع فجأة فى الشقة المقابلة . . نهض الرجل عن المائدة ، بعد أن فرغت القطط من طعامها .. ومشى خطوة ثم ترنح .. وعاد إلى المائدة . . واعتمد على حافتها بيديه لكى يحتفظ بتوازنه ، ولكنه لم يستطع وهوى فوق المائدة ، وانكفأ رأسه بين الصحاف الفارغة ، والقطط من حوله تموء . .

وأصاب حسناً ذهول . .وظن لحظة أن عياراً أفلت منه وأصاب الرجل

فى مقتل . . ولكنه لم يلبث أن قطع بأنه لم يسمع دويًّا ، ولم يتنسم دخاناً وتحسس السلاح فوجده مايزال بارداً فى يده .

وفى دقيقة كان حسن قد هبط السلم وأخذ يطرق حجرة البواب وهو يصرخ : « فى الشقة المقابلة رجل يموت » — وفى الدقيقة التالية ، كان هو والبواب يدقان باب الشقة ولا مجيب ، فيشتركان فى دفعه بالأكتاف . .

وبعد ساعة كان الطبيب الذى استدعى لإسعافه يغلق حقيبته وعلى فمه ابتسامة لم ينزعها عن شفتيه ، . . إن مريضه كان يئن فى الفراش .

وعند الباب سأله حسن عن هذه العلة التى كادت تودى بحياته ، قال على أذنه هامساً : « إنها علة ممتعة . . . اسمها التخمة » .

وأحس حسن وهو يعود إلى جوار المريض شيئاً من السخط عليه ، وشيئاً من الندم ، لأنه سارع إلى نجدته . لقد كانت مطيته إلى الآخرة معدة فارغة بدأت تهضم نفسها . . وهذا الأكول مطيته إليها معدة مملوءة . . وحك رأسه فى حيرة . .

* * *

ولكنه نسى حيرته عندما أفاق الرجل وفتح عينيه . . وبدأ يشكر البواب الشهم والموسيقى الرقيق .

وعندما هم بالانصراف أقسم أن يتناولا معه طعام السحور .

ولم يجد حسن فى نفسه ميلا إلى رفض الدعوة ، وبخاصة أن الرجل كان

محدثاً لطيفاً .. لقد تبسط معهما ، وباح لهما أنه يعيش وحيداً برغمه، فقد كانت له زوجة هربت مع عشيق .. وهو يربت بيده السمينة على قططه الصغيرة وكأنه يقول لهن : « هذا سر حبي لكن . . أمكن تخلت عنكن وذهبت . إنها على شاكلة هذه المرأة الرديئة » .

وأوشك حسن أن يهيب به ، وقد لاحظ أنه بدأ يستغرق فى التهام الطعام : « إنك لم تنسها . هل تحاول ، من أجلها ، أن تنتحر بالنهم ؟ ».

ولكن البواب كان أسبق منه إلى الحديث وانطلق معقباً: « النساء حقًّا خائنات . ولكن من الصواب أن يكون لك خادم يستدعى لك الإسعاف عند اللزوم » .

واهتز بطن المضيف من الضحك وهو يجيب مستنكراً : « خادم؟ .. أتريدنى أن أموت قتيلا . .أنا صاحب محل رهونات ، والخدم يظنون أن أمثالى ينامون على ورق بنكنوت بدلا من القطن » . .وتنهد البدين وهو يضيف : « مساكين زبائنى ، لو كنت مت. لذهبوا فوجدوا الباب مغلقاً. . ومن غيرى يفك ضيقهم ويقرضهم بشروطى السخية » .

* * *

وعندما استيقظ حسن فى الصباح أدهشه أن أفكاره مرحة ، وأنه يحلق ذقنه ويمشط بعناية رأسه .

وخاطب حسن الوجه الحليق الذى وجده فى المرآة .. خاطبه قائلا : «كنت قاسياً عندما حكمت عليه بأنه تافه. . هؤلاء الذين يقرضهم .. لو مات لوجدوا بابه ، باب الأمل ، مغلقاً. . إنه على الأقل يؤجل انتحارهم إلى غد. . والغد يوم جديد.. » .

* * *

ووجد حسن نفسه فى الطريق. . إنه لا يكره اليوم أن يبحث عن عمل وإن دمه ليركض دافئاً فى عروقه ، وهو يسمع فجأة راديو البقال منطلقاً بلحن من ألحانه. . إنه لحن قديم لن يقبض عنه أجراً ، ولكنه مع ذلك يمنحه التفاؤل . . فإن البقال يتمايل نشوان مع النغم ، وفى وجهه راحة ، وعلى شفتيه ابتسامة. . ابتسامة كأنها تخاطبه وتقول له: « أنت أيضاً لست تافهاً كما تظن قلوب كثيرة فى أماكن قاصية يدخل فيها البهجة لحنك هذا .. هناك رجل واحد تافه. . ذلك الذى حاول أن يطلق النار بالأمس » . .

* * *

وأحس حسن أن لحناً جديداً يولد فى قلبه .

ولكن من أين له الطعام حتى يتفرغ لميلاد هذا اللحن.؟

ووقف فجأة ، متهلل الوجه ، كأن كنزاً قد سقط عايه من السماء .

سيذهب إلى الرجل البدين. . وسيرهن عنده المسدس .. ويضمن بهذا على الأقل ألا يقتله به. . إذا جاع .

وبعد أن يصبح فى يده المال ، سيقترض أيضاً من صاحبه الحديد إحدى قططه. . ويشترى لها لبناً ، ويضعها على المائدة لتلعقه أمامه. . وسيناجيها قائلا : « يا عزيزتى لا توجد حياة تافهة. . ولا حياتك .. أنا والآخر المقيم فى الشقة المقابلة لانزال نتنفس ونسعى تحت الشمس ، والفضل لكن » !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/٢٣٨٥

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

